رواية سيد الاسياد 2021

المثقف
للنشر والتوزيع

بالتعاون
مـــــع

البحرينية المصرية
للنشر والتوزيع
B&E FOR PUBLISHING

❖ اسم العمل: سيد النسياد (رواية).
❖ الكاتب: طارق حنفي محمود
❖ دققه وحرره: إسلام م. صديق.
❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنـــة.
❖ تصميم الغلاف: أنس أيمن.
❖ مستشار أدبي ونائب رئيس مجلس الإدارة: إنتصار ربيع عبد الحميد.
❖ رقم الإيداع: 2272 / 2021
❖ الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6797 –74 -1

9 789776 797741

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي انتهاك سيعرض صاحبه
للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط
ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها
إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر

-(للتواصل)-
002 01000147443
b.e.publishing.33@gmail.com
محمد حسين ميزار
رئيس مجلس الإدارة

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من
حيث الاراء والافكار والمعتقدات، وكونه
أصيل لم غير منقول، وأية خلافات قانونية
بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

رواية

سيد الأسياد

(الطبعة الثانية / منقحة)

الكاتب

طارق حنفي

إهداء

إلى قلوب بالخير عامرة لا ينقص منها عطاء، دافئة على الدوام لا ينال منها شتاء..

إلى كل من وقف بجوارنا لعلنا ننضج، ومن وقف في وجوهنا خوفا علينا من أن ننضج..

إلى كل تلك الأرواح التي جاءتنا لما علمت بالأمر، والتي تركتنا حين جاءها الأمر..

إلى تلك الأرواح الطيبة التي لا يلهيها الأمل، ولا يغرنها بالله الغرور..

إلى روح أمي الطاهرة..

أهدي كتابي

طارق حنفي

مقدمة

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الإنسان هو الخليفة في الأرض، وأعطاه السيادة على جميع المخلوقات، وكما أنه سبحانه وتعالى وهب الإنسان القدرة على الاختيار، والأسباب التي تساعده على ذلك، وهبه العقل والمنطق والقدرة على القياس وأخذ العظات، وبعث له الأنبياء، وأمدهم بالكتب السماوية لهدايته، كما وهبه الهداية الذاتية وأنوار الفطرة السليمة، لذلك فمن يحاول سلب تلك القدرة من الإنسان والسيطرة عليه وتوجيهه رغما عنه، أو إجباره على اختيار أشياء بعينها أو القيام بأفعال محددة، فهو في الحقيقة يحارب إرادة الله وفطرته ويعارض حكمته.

وفي محاولة من الشيطان لإضلال الإنسان قام بتعليم نفر من الجن، ومعهم بعض البشر السحرَ، على أمل أن يصل في وقت ما إلى السيطرة على الإنسان والتحكم في اختياراته، كما تصور ذلك النفر من الجن أنه بالسحر والأوهام قد يستطيع فرض سيادته على الأرض ويكون سيدا على الإنسان نفسِه، واجتمعوا معا في حربهم عليه، لكنهم لم يدركوا الحقيقة المطلقة، ولم يروا الصورة الكاملة، فهم لا يحاربون

الإنسان وحريته أو سيادته، بل يحاربون إرادة الله وحكمه وعدله، يحاربون سنته سبحانه وتعالى في خلقه للإنسان، خليفته في الأرض.

إنها المعركة الطويلة بين أنوار العلم والرحمة، وظلمة الظلم والسحر والسحرة، وساحة تلك المعركة هي نفس الإنسان وذاته.

إن رحمة الله قد تتباين وتختلف درجاتها من شخص إلى آخر، كما تختلف من محنة إلى أخرى، فتكون بحسب درجة إيمان ذلك الشخص أو ذاك، وبحسب شدة المحنة، كذلك فإن رحمة الرحمن حين وسعت كل شيء فقد وسعتهم في جميع الدرجات، ما نراه وندركه وما لا ندركه، ما نفهمه وما لا نفهمه، تسعه في كل درجات عمق النفس البشرية، فأينما وجدت محاولة الظلام للأذى والضرر توجد رحمة الله هناك حتى لو لم يستطع الإنسان أن يراها أو يعقلها.

ولأن الأصل في الجود هو العطاء بدون انتظار للرد، كذلك رحمة الله تسري دون انتظار لاستيعابها من الإنسان المرحوم بها، حتى دون انتظار طلبه لها، خصوصا في الأمور التي تمس حرية اختياره أو استعباده، فهي أمور تتطلب الرحمة العاجلة، كما حين يحاول أولئك السفهاء أن يغيروا من برمجة ميزان الفطرة السليمة والعدل الذاتي داخل عبد من العباد، ويحولوه إلى الاضطهاد والظلم عن طريق الرصد أو غير ذلك، هنا تهب رحمة الله لنصرة ذلك العبد من قبل حتى أن يطلب هو ذلك.

وكما أن الرحمة قائمة على العلم الذي وسع كل شيء، ولأن عقل الإنسان لا يستطيع أن يعلم أو يستوعب كل شيء، فإن الإنسان لا يستطيع استيعاب رحمة الله وفهما إلا فيما ندر وفي مستويات معينة، وهو حين يفعل ذلك قد يؤول أنوارها تأويلا خاصا به هو، ولأن الرحمة قائمة على العلم فهي تعلم ما يريده ذلك الإنسان، وتسمح لخياله وروحه وقلبه أن يؤولوها كما يريدون.

كيف لو استطعنا أن نلبس جميع تلك المعاني ثوبًا ماديًا؛ معانى الرحمة والنور، معاني الظلم والسحر والأذى، معاني الحسد والغيرة؟!

كيف لو استطعنا القفز داخل مملكة الإنسان، داخل نفسه وروحه، ورأينا تلك المعاني حية مجسدة وشاهدنا تلك المعارك؟!

كيف لو استطعنا أن نصف رحلة الهداية؟ كيف ستكون الصورة؟ وكيف سيكون المشهد؟!

تمهيد

كان الناجون يتحدثون بها سرا داخل الكهوف، وأحيانا همسًا حول النيران، ويروون حولها الروايات؛ يحاولون أن يستوعبوا ما حدث وكيف حدث ولماذا، أو ربما هم لا يريدون أن ينسوا ماضيهم.

روايات ظلوا يتناقلونها جيلا بعد جيل حتى أصبحت أشبه ما تكون بالأساطير والقصص الشعبية، ومع ذلك لم تسطع أي منها أن تجيب على بعض الأسئلة: كيف حدث الطوفان؟ ولماذا اختفت الحضارة على الأرض؟ و كيف نجى البعض منهم؟ والغريب في الأمر أن معظم الناجين كانوا من الصبية والأطفال دون الكبار.

يحاولون في كل مرة أن يصوروا المشهد على سطح الأرض، وكيف أصبح مع ما تبقى من الماء الذي غمرها، وكيف استحالت الحياة على سطحها.

يتحدثون عن أصوات كانت تتكرر باستمرار ويسمعها الجميع تأمر هؤلاء الناجين أن يلجؤوا إلى الجبال حيث أعدت الأسياد لهم بيوتًا وملاجئ، واستمرت تلك الأصوات سنوات طوال حتى أذعن لها الكبار وشب على طاعتها الصغار، وانتشرت الكثير من الروايات عن الأسياد أنفسهم.

إن من فرط حب الأسياد للإنسان أتوا لينقذوهم من غضب بعض الآلهة التي حاولت أن تفنيهم تماما، فصنعوا لهم بيوتًا منحوتة - بفضل قوتهم العظيمة - كالمغارات في الجبال ليحيوا فيها، وقسموها من الداخل غرفًا؛ بعضها يستخدم للنوم وبعضها كحمامات يستخدمونها لقضاء الحاجة داخل حفر صغيرة، كما كانت تستخدم للاستحمام، وإن كان قليلًا وذلك بسبب قلَّة الماء، وغرفة كبيرة في وسط الكهف ملحق بها ركن يحتوي على بعض الأدوات المصنوعة من نوع خاص من حجارة الأسياد؛ لتستخدم في طهو الطعام، وكانوا يعتمدون على ضوء الشموع التي برعوا جميعا في صناعتها، وأحيانا ضوء النيران.

وعلى جانب مدخل كل كهف يقبع تمثال صنعه الأسياد ببراعة، ثم حدد لهم الأسياد المأكل، كما كان الجميع رجال ونساء وصبية وأطفال يرتدون نفس الملبس، المصنوع من قماش سميك والمكون من قطعتين، قميص وسروال بنفس اللون الأسود، وفي الليل يستبدلونه بنفس الملبس ولكن بلون أبيض.

وبعد أن استقر الناجون في المغارات وضع لهم الأسياد بعض القوانين التي تنظم لهم العلاقات فيما بينهم، حتى الزواج، فالأسياد هم من يقولون بوجوب زواج أحدهم، فيختارون له زوجه؛ حيث يسمع الشاب قبل نومه صوتا يخبره باسم عروسه ومكان الكهف الذي تعيش فيه، وفي نفس الوقت تسمع هي اسمه ومكان كهفه، والتطابق بينهما

هو العلامة، وهم أيضًا من يحددوا لهما الموعد، ثم ينتقل العروسان إلى كهف جديد أعد خصيصا لهما، وفي العموم كان الزواج قليلًا والإنجاب نادرًا.

وكما يحكي تاريخ الناجين، فقد تلت تلك المرحلة مرحلة الأحكام والقوانين التي تحدد علاقة الإنسان بالأسياد أنفسهم، وما يتوجب عليهم فعله لينالوا رضاهم، وما لا يجب فعله وإلا العقاب.

كانت الأحكام أشبه بالمقدسات التي يجب أن يحفظها الجميع؛ لذلك فقد وزع على كل كهف كتاب يحوي المقدسات وشرحها، ولسنوات بعدها أخذت الأصوات تردد تلك الأحكام على مسامع الجميع حتى صارت بالنسبة إلى الناجين هي الفطرة، حتى لا يتكرر ما حدث، ولمصلحة بقاء الإنسان وضع الأسياد الأحكام السبع أو المقدسات، أو بحسب ما يحلو للبعض أن يطلق عليها القوانين السبعة في الأرض.

الجزء الأول

كتاب الحكمة

(١)

في الكهوف نحيا ونطيع الأسياد.....أحكامهم تسري فينا وتحكمنا

غمر قلب "خالد" شعور بالأنس، وهو يجلس مع أمه وجدِّه حول النار في تلك الليلة، كما يحدث دائما في كل مرة يحضر الجد لزيارتهم، ومع الدفء الذي تبعثه النار في جسده، تمنى لو تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، كان غارقًا في بحر الدفء والأنس خاصته، حين نظر إليه جدُّه بتلك النظرة الحانية الفخور التي ينظر بها إليه دائما، ثم سحبه خارجا وهو يقول له:

- كل عام وأنت بخير.

نظر إلى جده نظرة تفيض بالإعجاب والحب الشديدين، وهو يقول:

- وأنت بخير، يا جدي.

وغمز له الجد غمزة جعلته يبتسم رغما عنه وقد ذكرته بتلك الواحدة، حين أخبره أن يبقي أمر عدم سجوده لذلك التمثال خارج كهفه سرًّا، مما جعله يبتسم آمنا في وجود جده.

ابتسمت الأم رغم القلق البادي على وجهها وهي تتطلع إلى أبيها وفي عقلها يدور العديد من الأسئلة؛ لماذا وافقت على إقامة مثل هذا الاحتفال؟! تتمنى أن يمر كل شيء على خير، تعلم أن اليوم هو عيد ميلاده السابع عشر، وهو أكثر ما يقلقها؛ فذلك يعني أن تكليفه سوف يبدأ بعد عام بالتمام، ترجو أن يرضى عنه الأسياد، غادرت

الأفكار عقلها وانسابت الكلمات من بين شفتيها رغما عنها مع تلك التنهيدة الحارة التي أطلقتها:

- ماذا يخبئ القدر له؟

التفت إليها "خالد" يسألها:

- ماذا تقولين؟

عادت الأم لصمتها ووجهها القلق؛ مما جعل الجد يعقد حاجبيه وهو يسألها في جدية:

- ماذا هناك؟

- لقد اقتربت الساعة من الرابعة والنصف ولم يأت أحد.

ثم التفتت إلى "خالد" تسأله:

- هل ذهبت إليهم جميعا؟

- لم أترك أحدا منهم.

- وماذا كنت تقول لهم؟

- كما طلبت مني، كنت أميل على أذن أحدهم وأهمس له بأن أمي تدعوك لحضور حفل عيد ميلادي غدا، وطلبت منهم أن يأتوا في تمام الساعة الرابعة والنصف.

- هل ذهبت إليهم جميعا؟

تنهد وهو يقول:

- لم أترك منهم أحدا.

ابتسم الجد وهو يحاول أن يلطف الأجواء بقوله:

- إنهم ستة كهوف فقط في هذا المستوى من الجبل، وكما تعلمين أن كل مستوى من الجبل يحتوي عل سبعة كهوف.

استفسر "خالد":

- ماذا تعني؟

- لقد قسم الأسياد الجبل إلى ستة مستويات بحيث يحتوي كل مستوى على سبعة كهوف.

بدا أنه سيكتفي بذلك إلا أنه عاد يتكلم وقد ارتسم على وجهه الضيق:

- إنها مجموعة من الجبال التي تمتد في شكل دائري لتحيط بعين النار.

نهضت الأم في فزع وهي تلقي نظرة على عين النار ثم قالت في حذر:

- مع أنها موجودة على الأرض وسط ما تبقى من ماء الطوفان لكنها لا تنطفئ أبدا.

أكمل الجد من حيث انتهت:

- ومع كبر حجمها ولسان نارها الذي يكاد أن يعانق السماء فإن أوضح رؤية لها هي من هنا، وبالأخص عندما تغيب الشمس، كما يبدأ سماع دوي انفجارات بداخلها، وذلك الشكل الدائري يتيح لجميع ساكني الكهوف أن يروا عين النار من أماكنهم أيضا.

سمع الجميع صوت أحدهم وهو يقول في فرحة:

- اشتقت إليك حقا يا "حافظ".

التفت الجميع إلى مصدر الصوت و"حافظ" يقول في ود:

- مرحبا بك يا "درويش".

حيا القادم الجميع ثم جلس على إحدى تلك الأحجار الموضوعة أمام مدخل الكهف وهو يلتقط أنفاسه في سرعة، ثم نظر إليهم وهو يقول في جدية واضحة:

- هل جننتم؟ لماذا تقيمون مثل ذلك الاحتفال؟ إنهم يعرفون كل ما نفعل، يسمعون ويشاهدون.

قاطعه "خالد":

- من هم؟

التفت إليه "درويش" وهو يقول في استنكار:

- الأسياد.

صمت الجميع، لكن الصمت لم يطل كثيرا فقد حضر أحد المدعوين قبل أن يبدأ توافدهم تباعا؛ قامت الأم تستقبلهم بترحاب شديد وهي تدعوهم أن يدخلوا الكهف، دلف الجميع إلى صحن الكهف، وبمجرد أن دلف آخر المدعوين أطفأت هي النار الموقدة خارجًا، وعندما لحقت بهم إلى الداخل أوقدت واحدة أخرى أقل حجمًا، وقد أحاطتها ببعض الأحجار.

من الواضح أنها - وربما ساعدها "خالد" قليلًا - قد مهدت المكان لاستقبال الزوار، وإلا ما اتسع لهم جميعا، لم يتوقع "خالد" حضور ذلك العدد الكبير، لذلك أصابته الدهشة وهو يراهم قد حضروا لتهنئته بعيد ميلاده السابع عشر؛ لقد اكتظ المكان بعدد كبير من الناس لم يره مجتمعًا من قبل.. أحصى أربعة من كبار السن وخمسة رجال وست نساء غير أم خالد، وأربعة من الصبيان والبنات وطفلين، فأسر في نفسه: لقد أحسنت أمي تنظيم الجلسة بالفعل.

احتل كبار السن والرجال المقاعد المنحوتة من الأحجار، تركوا واحدًا للأم لكنها تركته بدورها وجلست مع باقي النساء على حصيرة الكبيرة صنعتها بيديها، بينما الصبية والأطفال بعضهم يجلس والبعض الآخر ينتشر هنا وهناك.

وقف "خالد" على مدخل الكهف يتطلع إلى الضباب الخفيف الذي بدأ ينتشر في كل مكان مما يحجب بعض التفاصيل، فيدفع الناظر للاهتمام بالصورة الكلية أكثر، يرى القمر مكتملًا بلونه القرمزي في مشهد بديع ربما يدوم حتى الساعة الثامنة، قبل أن يغيب وتتحول السماء إلى اللون الأحمر القاني، ثم تضرب السماءَ تلك الصواعقُ التي تنذر بسقوط مطر أحمر، يذيب الأجساد بمجرد أن يلامسها، والذي لم يره بعينه قط، لكنه سمع أمه تتحدث عنه وتحذر منه كثيرًا.

كان الجد مندمجا في حديث ودي مع "درويش"، ثم حانت منه التفاته إلى مدخل الكهف، فهاله منظر حفيده الذي يقف شارد الذهن يتطلع إلى شيء ما في الخارج، نهض من مكانه واتجه إليه ثم وضع يده على كتفه في رفق مما جعل خالد "يلتفت" إليه ويبتسم له، فسأله الجد:

- ماذا هناك؟

لم يجبه "خالد"، بل التفت بوجهه مرة أخرى ينظر إلى نفس الشيء، مما جعل الجد يلتفت بدوره وما إن وقعت عيناه عليها قال:

- آه، عين النار.

نهض الجميع ولحقوا بهما وهما ينظرون إلى عين النار المترامية على مرمى البصر، ولسان نارها الذي يتراقص وهو يرتفع عاليا، نظرة لم تلبث أن صاحبها الفزع في كل مرة ينطلق منها الصوت الأشبه بالانفجار.

بعـد أن كانـت مجـرد لسـعة بـرد خفيفـة، بـدأ البـرد يـزداد؛ ممـا جعـل الجميـع يعـودون سـريعا إلـى أمـاكنهم مـرة أخـرى، ليقتربـوا مـن النـار الموقـدة وهـم يرشـفون ذلـك المشـروب السـاخن الـذي أعدتـه الأم احتفـالًا بـذكر يـوم مولـد "خالـد"، يرشـفونه فـي سـرعة لعلـه يبعـث الـدفء فـي أجسـادهم، ثـم أخـذ بعـض الأطفـال يمرحـون فـي سـعادة وهـم يجـرون هنـا وهنـاك، لكـن إحـدى النسـاء نهضـت فجـأة، وقـد عـلا صـوتها الـذي غلـب عليـه الخـوف وهـي تقول:

- لا تخرجوا من الكهف.

شـعرت بالخجـل مـن نبـرة صـوتها، ممـا جعلهـا تتنحـنح قبـل أن تحاول تبرير نفسها وتقول:

- أنتم تعلمون ما يمكن أن يحدث.

نظر الجميع إليها وهزوا رؤوسهم علامـة علـى الفهم.. بعد أن عاد الجميع كبارا وصغارا لمجالسهم قال أحد الصبية، وهو ينظـر إلـى جد "خالد" في احترام وحب واضحين:

- جدي "حافظ"، لماذا لا تحكي لنا الحكايات عن الحياة قديمًا؟ كيف كانت قبل أن يأتي الطوفان، وقبل أن يقرر الأسياد النزول علـى الأرض والعيش بيننا؟

كـان الجـد طيـب المعشـر محبوبًـا مـن النـاس جميعًـا، ولـمَ لا وهــو رجــل حلــو اللســان؟ كمــا كــان راويًــا جيــدًا للقصــص والحكايـات، وهـو مـا كـان يحبـه الصـبية والأطفـال، وخصوصًـا مـع تلـك الحقيبـة الجلديـة الكبيـرة التـي يحملهـا علـى كتفـه ويأخـذها معـه إلـى أيّ مكـان، والتـي صـنعها بيديـه منـذ مـدة طويلـة، حقيبـة مليئـة بالأشـياء التـي كانـت تدهشـهم كثيـرا عنـدما يخرجهـا ويريهـا لهم.

ابتسم الجد وإن بـدت ابتسـامته باهتـة، فحـبس الجميـع أنفاسـهم ونظروا إليه وهو يقول:

- لا أحــد يعلــم علــى وجــه التحديــد متــى أو لمــاذا قــرر الأسـياد النـزول علـى الأرض، وهـل كـانوا يعيشـون بيننـا مـن قبـل دون أن نــراهم أم لا!، لكــنهم ظهــروا، ومــع ظهــورهم جــاء الطوفــان؛ طوفــان عظــيم هــدم الحضــارة علــى الأرض.. ثــارت ميـاه البحـار، وعلـت فـوق البيـوت والأبنيـة، وحـين هبطـت كانـت قـد هـدمتها جميعـا، ودفعتهـا أمامهـا لتكتسـح بهـا كـل مـا لـم تهدمـه المياه.

سأل أحد الصبية وهو يلهث من فرط الحماس:

- وما البيوت؟ وما الأبنية؟

ابتسم الجد وهو يقول:

- كـان البشـر قـديما يسـكنون الوديـان، وعلـى الأرض نفسـها، وليس فقط الجبـال كمـا هـو الحـال الآن، مـا زلـت أذكـر بعض المشـاهد من طفولتي.

شرد ببصره وهو ينظر إلى اللا شيء، ثم أكمل:

- هـي مشـاهد قـد علقـت بـذهني ولا تفارقـه، أرى فيهـا أبـي يرتـدي ملابـس مختلفـة عـن تلـك التـي نرتـديها الآن، يحملنـي فـي حـب وأنـا أنظـر إليـه فـي سـعادة وأمـان، وفـي بعضـها أراه يـدور بـي حـول نفسـه وهـو يضـحك بصـوت عـال.. أذكـر أنـه كـان يقـف علـى أرض خضـراء أمـام بنـاء كبيـر أبـيض لا أتـذكر مـن تفاصـيله الكثير.

تنهد الجد في حسرة قبل أن يستكمل كلامه:

- كم كنا نمرح ونلعب معًا في هذا الوقت!

صمت لحظات ثم استطرد:

- أو عندما كان يعلمني القراءة والكتابة بلغتنا.

نفض رأسه في سرعة وهو يعود لينظر إليهم ويقول:

- في ذلك الوقت كان البشر يقيمون منازل وأبنية عالية.

التفت الجد إلى نفس الصبي وسأله:

- ما اسمك يا بني؟

- اسمي "نجيب".

- هل تعرف كيف تشكل التراب ليأخذ شكلًا ما يا "نجيب"؟ ربما شكل كرسي على سبيل المثال.

- نعم، فأنا أضع الماء على التراب وأخلطه ثم أصنع الشكل الذي أريد قبل أن أتركه ليجف.

نهض الجد فجأة وهو يشيح بيديه عاليا ويقول بصوت قوي غلب عليه الحماس:

- أحسنت يا بني، هكذا كانوا يصنعون المباني، وإن كانت المباني أكثر علوًّا وقوة.

فتمتم الصبية جميعًا "هممممم"، ابتسم الجد وهو ينظر إليهم قبل أن يقول:

- كما كان هناك ماء ينزل من السماء ويسمى مطرًا، ماء عذب يصلح للشرب وأيضا للزراعة.

أومأ كبار السن خاصة برؤوسهم، وقبل أن يسأله أحد الصبية عن معنى كلمة الزراعة استكمل الجد كلامه:

- في ذلك الوقت كانت الكتب تحوي العلوم والمعارف، لكن مع ظهور الأسياد استبدل الكلام الذي يشرح تلك العلوم والمعارف بذلك الذي يشرح الأحكام.

وهنا تكلم صبي آخر بلا إذن، وبصوت خافت غلب عليه التردد والخوف:

- وهل الأسياد هم من صنعوا الطوفان واستبدلوا الكلام من الكتب؟

قام الجميع بزجر الصبي، وهم يضعون أصابعهم على أفواههم، وينظرون إلى بعضهم البعض؛ فبداخل كل واحد منهم يتردد السؤال نفسه: هل الأسياد هم المسؤولون عما آلت إليه الحياة على الأرض؟ وقبل أن يسترسل الجميع في أفكارهم أكثر، تكلم الجد بصوت عال غلب على صوت أفكارهم، مما جعله يستحوذ على انتباههم مرة أخرى:

- لقد طرح الكثيرون هذا السؤال من قبل، والإجابة التي نعرفها تعود لرجل سأل نفس السؤال، لكنه سأله مباشرة إلى الأسياد، عندما ظهر أحد الأسياد للرجل فسأله هذا السؤال تحديدا، وأجابه السيد بقوله: "لولانا لهلكت الأرض، نحن لم نصنع الطوفان ولكننا أنقذناكم منه، وصنعنا لكم تلك الكهوف في الجبال لتحيوا فيها، حتى إذا جاء الطوفان مرة أخرى تكونوا في أمان منه فلا تهلكون".

صمت الجد لحظات وهو يتفرس وجوههم ثم أضاف:

- ومع الطوفان وبين غرق الكتب ومحو الكلام، انتهى ما يسمى بالعلم الذي في الكتب، ومع غرق العلماء أنفسهم انتهى ما يسمى بالعلم الذي في الصدور.

نظر الجد إلى الأرض قبل أن يكمل في حسرة:

- وهذا ما جعل الأسياد يضعون القوانين؛ لتضمن لنا البقاء، وتنظم لنا الحياة، ولسنين طوال أخذوا يرددونها على مسامع الجميع ليل نهار، وعندما تأكدوا من استيعاب الجميع لها توقفت تلك الأصوات، وإن أبقوا في كل بيت كتاب يحوي الأحكام وشروحها.

صمت الجد لحظات شحذ الجميع فيها انتباههم، وهم ينظرون إليه في ذهول، فتلك المرة الأولى التي يسمعون فيها مثل هذا الكلام، حتى الرجال، نظر إليهم الجد وهو يقول بصوت غلبت عليه المرارة:

- استبدلوا بالعلم الذي كان في الكتب قوانينهم السبع، فاقتصر العلم على شرح القوانين، وأمروا الجميع أن يحفظوها عن ظهر قلب، ثم بالتدريج قل عدد ساعات النهار وزادت ساعات الليل، وزاد معها عدد ساعات النوم، حيث يجب النوم كما تعلمون في تمام الساعة الثامنة مساءً.

غلب على صوته التوتر وهو ينظر إليهم ويضيف:

- بالمناسبة لقد اقتربت الساعة من السابعة.

لكن فجأة دوى الصوت عاليا يصم الأذان واقشعرت معه الأبدان؛ لقد عاد الأسياد للكلام:

- حتى لا يتكرر ما حدث، ومرة أخرى لمصلحة بقاء الإنسان نؤكد نحن الأسياد على المقدسات السبع:

أولًا: (حكم من الأسياد، على من يبلغ سن التكليف أن يسجد للتمثال أمام كهفه عند خروجه من الكهف وعند الدخول) فمن تعدَّت سنُّه الثامنة عشرة، عليه أن يسجد لتمثاله حين يخرج من كهفه صباحًا، وحين يعود إليه قبل الغروب..

ثانيًا: (حكم من الأسياد، على الجميع أن يعيشوا داخل الكهوف، لا يهبطون إلى الأرض أبدًا) وعلى ذلك سيجد كل منكم الماء والطعام أمام كهفه، الماء سيكون بقدر ملء صندوق حجري محدد يكفي لسبعة أيام، أما الطعام فسيكون عدسًا وفولًا وثومًا وبصلًا، وسيوزع بمقدار يكفي سبعة أيام أيضا وسيوضع في صندوق حجري آخر، وهي الكمية التي لا بد أن تكفي سكان كل كهف سبعة أيام..

ثالثًا: (حكم من الأسياد، على الجميع أن يكونوا في حدود كهفهم قبل غروب الشمس، على أن يكونوا داخل الكهف نفسه قبل

السابعة والنصف) فمن يخرج صباحا بإذن منا ويترك الكهف عليه أن يكون في حدود كهفه قبل الرابعة والنصف وهو موعد غروب الشمس، وأن يكون داخل الكهف قبل أن يختفي القمر بنصف ساعة وإلا طاله المطر الأحمر المميت..

رابعًا: (حكم من الأسياد، على الجميع أن ينام في الساعة الثامنة تمامًا)..

خامسًا: (حكم من الأسياد، على الجميع الاستيقاظ في الساعة السابعة صباحًا) ننقل بطريقتنا الخاصة من وجب عليه العمل من المكلفين من الرجال إلى مكان عمله في الثامنة صباحًا، بحيث تنتظرون أمام كهوفكم مرتدين أقنعة الغشاوة، ويسجد كل منكم للتمثال أمام كهفه، على أن نعيدكم كلًا إلى كهفه في الرابعة تمامًا.

- **سادسًا:** (حكم من الأسياد، على من يبلغ الثامنة عشرة أن يضع حجرًا أحمر أمام كهفه، وذلك في الصباح التالي لإتمامه إيّاهم)، قد أعطينا لكل كهف عددا من الحجارة الحمراء يحميها سكانه بحياتهم، وعنما يتم أحدهم الثامنة عشرة يختار الأسياد له العمل المناسب حسب علمهم وخبرتهم ونظرتهم له...

سابعًا: (حكم من الأسياد، ممنوع على أي أحد أن يحكي عن أحلامه مع أي إنسان آخر حتى لو كان فردا من أفراد عائلته)..

وصمت الصوت وصمت معه الجميع، وطال الصمت.. كانت أم "خالد" هي أول من تجرأ على الكلام وهي تقول:

- لكن لماذا؟

نظر إليها الجميع في خوف، ثم قال أحد الصبية:

- ماذا تقولين، يا خالتي؟

في شرود قالت:

- لماذا عادت الأصوات مرة أخرى؟

عقد الجد حاجبيه وهو يفكر في عمق لكنه لاذ بالصمت التام وأحد الرجال يقول في رهبة:

- لقد سمعت أنه في البداية، كانت تُسمع أصوات الأسياد دون أن يراهم أحد، وهي تكرر هذه الأحكام السبع على مدار الساعة حتى حفظها الجميع عن ظهر قلب.

ساد الصمت فترة إلى أن قطعه "درويش":

- لقد نشأت الأجيال مفطورة عليها وعاشت في كنفها خائفة من مخالفتها وإلا اختفى المخالف من الوجود ولم يعرف عنه شيء، كما حدث للكثيرين من قبل.. قد حاول بعضهم أن يثوروا على القوانين ويخالفوها فكانت النتيجة أن ذاب جسد أحدهم أمام أعين الجميع، ثم

اختفى الآخرون ولم يعودوا بعدها أبدا، ولهذا يجب أن يلتزم الجميع ويطيعوا الأسياد.

أضاف الجد في نبرة مشوبة بسخرية:

- أو ربما هو الخوف من غضب الأسياد؛ فربما يتركوننا ويحدث طوفان جديد يقتل الجميع ويهلك الحياة على الأرض.

صمت وصمت الجميع، ثم عاد يضيف بصوت ظهرت عليه السخرية واضحة:

- أو ربما طمعًا في أن ينال أحدهم رضا الأسياد، ويذهب بعيدًا هناك ليحيا معهم ويكون سيدًا.

قال العجوز الثالث:

- على هذا المنوال تناثرت الروايات هنا وهناك، حتى بدأت الأمور رويدا في الاستقرار، فتوقف البشر عن محاولتهم السباحة ضد التيار، ومع وجود ذلك الدخان الذي يغزو عقول المكلَّفين في الساعة الثامنة مساء كانوا ينامون ويحلمون، وفي السابعة صباحًا كان هذا الصوت الذي يدوي في آذانهم يجعلهم يستيقظون، وحين يستعد الواحد منهم للخروج كان يضع على عينيه قناع الغشاوة كما أسماه الأسياد.

التقط "درويش" طرف الحديث وهو يضيف:

- سواء هو أو أي فرد من عائلته لابد أن يضع هذا القناع وهم يسجدون للتمثال خارج الكهف، ثم يقف المكلَّف منهم في الخارج وحده ينتظر من سيقله إلى مكان عمله، والهلاك كل الهلاك لمن تسوّل له نفسه أن ينظر إلى هؤلاء الذين جاؤوا لنقله.

نهض الجد فجأة وهو ينظر إلى الجميع قبل أن يقول بلهجة صارمة لا تقبل النقاش:

- لا بد أن تذهبوا الآن للنوم، إنها القوانين السبع.

في الحقيقة لقد كان يحاول أن يتهرب من الاستمرار في سرد الحكايات أو في ذلك الحوار عن الأسياد والأحكام، فقد كان في مزاج سيء، وإن لم يُرِدْ أن يظهر عليه أثره، فقد كانت ليلة ميلاد "خالد".. هم الجميع بالانصراف، فمال الجد برأسه ناحية "درويش" وقال بصوت خافت:

- لا تذهب، فأنا أريدك في أمر ما.

* * * *

(٢)

أطيعهم وأخدمهم في يقظتي ... ومنامي فأنا عبدهم وهم أسيادي

ذهب الجميع وبقي "درويش"، الذي يبدو أنه من نفس سن "حافظ" أو أصغر بقليل، نظر إليه في قلق واضح وهو يقول:

- ماذا هناك، يا "حافظ"؟

ظن "حافظ" أن "درويش" سيكتفي بهذا، ففتح فمه ليجيبه لكنه صمت مرة أخرى و"درويش" يكمل في سرعة:

- إنك تبدو مختلفا، لماذا تبدو قلقًا هكذا؟

أشار إليه أن يصمت ثم مال عليه ليخبره أنهما سيتحدثان بعد أن يذهب الجميع إلى النوم.

وقف "خالد" أمام جده وصاحبه وهو يقول:

- أمي ذهبت إلى النوم، ألن تذهب إلى النوم يا عم "درويش"؟!

ثم التفت إلى جده وهو يقول في دهشة:

- وأنت يا جدي؟

نظر "حافظ" إلى "درويش" نظرة قلق قبل أن يلتفت إلى حفيده وهو يفرك يديه مما يوحي بأهمية ما سيقوله:

- أظنك قد سمعت أنه عندما يتجاوز عمر الواحد منا الستين عامًا يسقط عنه الحكم بالنوم في الساعة الثامنة، وكذلك الأطفال والصبية دون الثمانية عشرة عاما.

نظر "خالد" إلى جده مندهشًا مما يوحي بأنه لم ينتبه لذلك من قبل، فهو لا يزال يعتقد أن الجميع لا بد أن يناموا في الثامنة تمامًا، ما لبثت دهشته أن تحولت إلى ضيق ظهر في صوته وهو يقول في حدة:

- ولكن لماذا تقولون لنا غير ذلك؟ بل تجبروننا على النوم في الثامنة تماما!

أجابه "درويش" في سرعة:

- حتى تتعودوا، فليس هناك مجال للخطأ.

بدت الجدية على وجه الجد وهو يقول:

- هناك أمور كثيرة لا تعرفها ولم أخبرك عنها، فأنت ما زلت في السابعة عشرة، وكنت أرجئها حتى تبلغ سن التكليف.

صمت الجد لحظات بدا على وجهه التوتر قبل أن يضيف في شفقة واضحة:

- اذهب لتنام، وسوف نكمل كلامنا في الصباح.

وما أن اختفى "خالد" في غرفته بالكهف سأل "درويشُ" في قلق واضح:

- ماذا بك، أيها العجوز؟

خفض "حافظ" صوته وهو يقول:

- دعنا نتحدث في الخارج حتى يناما بالفعل.

خرجا وجلسا على تلك الأحجار التي تشبه المقاعد في الخارج، فالتفت "درويش" إلى حافظ يحثه على الكلام.

- لقد علمت أنهم ينوون تعديل حكم من أحكامهم السبعة.

قالها في شرود غير مصدق أنه استطاع أن ينطق بها أخيرا، فقفز "درويش" من مكانه في قوة لا تتناسب مع سنه، وهو يكرر كلام "حافظ" وعيناه متسعتان عن آخرهما:

- ينوون أن يعدلوا حكمًا من الأحكام السبعة! إنه شيء لم يحدث من قبل أبدًا.

- اهدأ واجلس، إنني أخشى أن يكون هذا التعديل بسبب "خالد".

ساد الصمت المكان حتى أن "حافظ" كان يسمع صوت دقات قلب صديقه، وبعد فترة من الصمت هدأ فيها "درويش" وسأل بصوت حذر:

- أنا بالفعل لا أفهم شيئا، هل تشرح لي مرة أخرى؟

فأجاب "حافظ" بسؤال:

- ما الذي تفهمه من القوانين حين يبلغ أحدهم الثمانية عشرة؟ كيف تسرى الأحكام فيه؟

نظر إليه "درويش" نظرة ضيق ذلك بأنه أجاب عن سؤاله بسؤال، لكنه تجاوز هذه النقطة سريعًا وهو يقطب جبينه ويقول في بطء:

- كما تعلم، مع بلوغ أحدهم سن التكليف يبدأ بأخذ دوره الطبيعي في خدمة الأسياد، بحسب اختيارهم هم لهذا الدور؛ فهم يمتلكون من المعرفة والحكمة ما يؤهلهم ليروا ما بداخلنا، وبناءً عليه يحددون لنا تلك الأدوار، وبحسب الدور المرسوم للشخص، ومع تفانيه وإخلاصه في تأديته ترضى عنه الأسياد، وقد تأخذه في مرحلة ما ليحيى معهم ويصبح مثلهم سيدا.

أنهى كلامه وهو يلهث من فرط الحماس، لكن "حافظ" لم ينتبه إلى ذلك وهو يقول في سرعة:

- أحسنت، لكن المكلف يستطيع أن يقوم بهذا الدور وهو في بيته، أليس كذلك؟

- بالضبط، فالمكلفون من الإناث عندما تبلغ إحداهم سن الثمانية عشرة سنة يبدأ تكليفها، بحيث تؤدي دورها نهارا داخل الكهف وليلا في أحلامها وبحسب اختيار الأسياد لهذا الحلم، كذلك الذكور منهم، يختارون لكل واحد منهم عمله الظاهر الذي يؤديه في النهار، ومن خلال أحلامه ليلا يؤدي الجزء الباطن من هذا الدور.

قال "حافظ" في حماس مفاجئ:

- تماما.. إن التكليف ينقسم إلى جزئين؛ ظاهر وباطن، ومع ذلك فإن المكلف من الرجال ما زال يستطيع أن يعود إلى بيته بعد العمل، أي بعد أن ينتهي من تأدية الجزء الظاهر وذلك قبل غروب الشمس، ثم ينام في بيته عند الثامنة ليقوم بتأدية الجزء الباطن، وسط أسرته.

قاطعه "درويش" وهو يطلق تنهيدة ارتياح:

- لقد أفزعتني يا "حافظ"، أين إذًا التغيير في الأحكام والقوانين التي كنت تتحدث عنه؟

- كيف يتأكد الأسياد أن الجميع يلتزمون بالقيام بأدوارهم على أكمل وجه؟

شعر "درويش" بالضيق من تجاهل "حافظ" الإجابةَ عن سؤاله للمرة الثانية، بل رد على سؤاله بسؤال آخر أيضًا، لكنه تجاوز شعوره هذا وهو يجيبه:

- كما تعلم، فهم يستطيعون أن يراقبوا الجميع.

قاطعه "حافظ" وقد حسم أمره وهو يزفر في قوة ويقول:

- لقد بلغني أن الأسياد سوف يأخذون الشباب بدءاً من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين إلى مكان خاص بعيدا عن بيوتهم، وأنهم سوف يقومون بشطري الدور المنوط بهم تأديته داخل هذا

المكان، ولن يعودوا إلى بيوتهم حتى يطمئن الأسياد إلى أنهم يحكمون السيطرة عليهم تمامًا، ويتأكدوا أن هؤلاء الشباب يقومون بدورهم في تفانٍ وإيمان.

صمت "حافظ" لحظات بدا على وجهه التأثر قبل أن تدمع عيناه وهو يقول:

- وهذا المكان قد يكون جنة لهؤلاء الشباب وقد يكون نارًا عليهم.

تطلع إليه "درويش" في دهشة عندما لاحظ أنه على وشك البكاء، فنظر في عينيه وهو يسأله في تأثر:

- هل ستبكي، يا "حافظ"؟

وقبل أن يجيبه، قفز "درويش" من مكانه، وهو يتحدث بسرعة وبصوت بدا عليه الخوف، ويشير بإصبعه إلى أعلى:

- لقد بدأت السماء تأخذ اللون الأحمر.

- إلى داخل الكهف، أسرع.. أسرع.

أسرع الرجلان إلى داخل الكهف حيث توجد شمعة مضاءة، استعانا بها، ثم تعاونا معًا حتى سدا مدخل الكهف بذلك الحصير السميك الذي لا ينفذ منه الضوء، وبعد أن تأكدا من إغلاقه تمامًا جلس

كل منهما على أحد الأحجار، أخذا يلهثان في قوة وهما يلتقطان أنفاسهما في سرعة.

مرت لحظات هدأت فيها أنفاسهما تماما، نظر "درويش" إلى "حافظ" وهو يبتسم ابتسامة باهتة قبل أن يقول:

- لقد بدأت أشعر أني عجوزا.

فأجابه "حافظ" بصوت ساخر:

- بدأت! قل انتهيت.

ضحك "درويش" وهو يقول:

- هل تتحدث عني أم عن نفسك؟!

ضحك "حافظ" دون أن يعلق، لكن فجأة خرج "خالد" من غرفته مندفعا، وهو يلهث ويصيح بأعلى صوته:

- جدي.. جدي!

التفت إليه "درويش" ومن قبله "حافظ"، والأخير يقول في لهفة:

- أنا هنا يا بني ماذا بك؟

وقف أمامهما وجسده ينتفض في قوة، نظر الجد إلى وجهه الذي ارتسمت عليه علامات الفزع والذهول واضحة، فأمسك كتفيه

بكلتا يديه وهو يجلسه بجواره، ثم أحاط رقبته بيده وجذبها إلى صدره في رفق حتى أسند "خالد" رأسه إلى صدره، ورويدًا رويدًا بدأت أنفاسه تهدأ.

انتظر الجد حتى هدأ تمامًا، ثم سأله بصوت حذر خرجت حروفه بطيئة:

- ماذا حدث يا بني؟

رفع رأسه عن صدر جده وهو يقول في ذهول:

- لقد حلمت يا جدي!

قال "درويش" في دهشة:

- حلمت! ولكن كيف؟! أنت لم تبلغ سن التكليف!

ثم استطرد في ثبات:

- إنها أحكام الأسياد، إن دخانهم الذي يغزو العقول هو من يجعلنا نحلم، وتمثال الأسياد أمام الكهف هو ما يعين المكلف من سكانه على تأدية دوره في منامه.

نظر إليه "خالد" في حيرة، وساد الصمت لحظات قبل أن يقول:

- أعلم يا عم "درويش"، فلا أحد يحلم قبل سن التكليف، ولكن صدقني لقد حلمت، ولولا أنني قد سمعت بعض الحكايات من أمي وجدي عن الأحلام لما علمت أن الذي رأيته هذا حلم من الأساس.

ثم صمت وصمت الجميع، إلى أن قطع الجد حبل الصمت وهو يسأله بجدية واضحة:

- ماذا رأيت في حلمك؟

نظر إليه "خالد" كمن فاجأه السؤال؛ مما جعله ينظر إلى أعلى وهو يستجمع أفكاره، ثم يقول:

- رأيت أني أقف أمام جدار قديم، سطحه أملس مصقول، ممتلئ من أحد جانبيه بكلمات مكتوبة بلغة غريبة لم أستوضح منها سوى اسم "خالد"، الذي كان يتكرر في كل سطر منها تقريبًا.

وهنا صمت، فقد تذكر أنه ممنوع عليه أن يخبر أحدا بأمر تعلمه القراءة والكتابة؛ لقد كان "خالد" هو الوحيد الذي يستطيع القراءة والكتابة في هذا السن المبكر، فتنحنح وهو يقول:

- أنا أعلم كيفية قراءة اسمى، وإن كنت لا أستطيع القراءة في العموم.

ابتسم الجد لفطنة حفيده، ثم أخبره أن يكمل بلا حرج، فاستطرد قائلًا:

- كان يقف أمام الجدار سبعة رجال متشابهين تماما، قصار القامة وأجسادهم ممتلئة، لهم نفس الشعر الأسود الكثيف الطويل، وهو نفس شعر شواربهم ولحاهم، وجميعهم يرتدون نفس الثياب الخضراء الغريبة.

بدا على وجه الجد علامات التفكير العميق، وهو يعقد حاجبيه في قوة، مما جعل "خالد" يتوقف عن الكلام وهو ينظر إليه، لكن الجد طلب منه أن يكمل، فقال:

- وفي إصرار شديد أخذت من أحدهم ذلك الشيء الذي يكتبون به، ووجدت نفسي أكتب في الجانب الآخر من الجدار كلمات بنفس لغتهم، وإن كانت أكثر، ولاحظت أنني كنت أستخدم الفواصل كثيرًا بخلاف كتاباتهم التي كانت بلا فواصل، وأيضًا خرجت كتاباتي زرقاء بلون السماء نهارًا بخلاف لون كتاباتهم التي كانت حمراء تشبه لون السماء ليلا بعد الثامنة، وعندما قرأ هؤلاء الرجال ما كتبت بدا على معظمهم عدم الاقتناع واستخفوا به، ثم قال أحدهم في إصرار: لن يكون ما كتبت يا "خالد"، ما كتبناه نحن هو ما سوف يصير، فوجدت نفسي أرد عليه وقد ازداد إصراري: بل ما كتبته أنا ما سوف يصير. وهنا نظروا إليَّ في انزعاج واضطراب واضحين ثم التفتوا جميعًا في وقت واحد إلى رجل طاعن في السن لم أنتبه إلى وجوده سابقا، لم ينظر إليهم بدوره بل كان ينظر ناحيتي وهو يبتسم ابتسامة صافية، رقت معها ملامحهم ثم اختفوا فجأة، واستيقظت من النوم فزعًا.

سأله "درويش" في انبهار:

- هل كان هذا الرجل موجودا من البداية؟

- أظن أنه ظهر فجأة.

سأله جده:

- كيف بدا هذا الرجل؟

حاول "خالد" أن يستجمع أفكاره وهو يقول:

- رجل كبير في السن؛ أكبر منك يا جدي.. بكثير، شعره أبيض طويل ينسدل على جانبي وجهه، ولحيته طويلة بيضاء وكذلك حاجباه وشاربه، يلبس ملابس بيضاء ويحيط به هالة بيضاء.

برقت عينا الجد وهو ينظر إلى "خالد" نظرة فخر، وإن غلبت عليها الشفقة وهو يقول:

- عد إلى نومك يا بني.

التفت "خالد" ليذهب بالفعل، لكن صوت جده استوقفه:

- "خالد"، لا تخبر أيَّ مخلوق بما رأيت في نومك، ولا بما سوف ترى فيما بعد، حتى أمك نفسها لا تخبرها بشيء، اتفقنا؟

أومأ له برأسه علامة الفهم قبل أن يستجمع إرادته ويسأله وهو يشير إلى تلك اللفافة التي لا تفارق يد جده:

- ما هذه المخطوطة التي تحملها معك دائما، يا جدي؟

تدخل "درويش" وسأله بدوره:

- ما هي بالفعل؟ وما أهميتها يا "حافظ"؟

تطلع "حافظ" إلى المخطوطة التي يحملها في يده، ثم ابتسم في غموض وهو يقول:

- هيا، اذهب لتنام يا "خالد".

*****

في الصباح وقبل السابعة، ذهب "درويش"، وترك "حافظ" يجلس وحيدا على إحدى الأحجار غارقًا تماما في التفكير، حتى أنه لم ينتبه إلى "خالد" الذي وقف أمامه ليقول بصوت ناعس:

- صباح الخير يا جدي.

قابله الجد بابتسامة حانية قبل أن يجيب تحيته بصوت هادئ:

- صباح الخير، هل نمت جيدا بعدها؟

- نعم، ولم أستيقظ سوى الآن.. يبدو على وجهك التعب يا جدي، ألم تنم؟!

أومأ الجد برأسه قائلا:

- بلى، حتى عندما نام "درويش" لم أستطع النوم.

- لماذا؟ وماذا هناك حقًّا؟

لما لم يجد جوابا، نظر إلى الأرض وهو يستطرد:

- أتعتقد أنني ما زلت صغيرًا؟!

أجابه الجد سريعا والابتسامة تعلو وجهه:

- لا، يـا "خالـد"، أنـت لـم تعـد صـغيرًا، وهـذا مـا يقلقنـي فـي الحقيقة.

اختفت الابتسامة من على وجهه الذي اكتسى بالجدية وهو يشير إلى صخرة بجواره، ويضيف في رصانة:

- اجلس هنا بجواري، فأنا أريد أن أتحدث معك في أمور لا أريد أن تسمع أمك منها شيئًا.

أسرع "خالد" بالجلوس جوار جده وهو ينظر إليه بعينين يبدو فيهما اللهفة والترقُّب، أخرج الجد من حقيبته مخطوطة أخرى غير تلك التي يمسك بها دائما، ثم مال على "خالد" وهو يقول صرامة:

- عدني أولا، أن كل ما سأخبرك به سيبقى سرًّا بيننا، وعدني أنك ستفعل كل ما أطلبه منك تماما كما أقول.

- أعدك.

فقال الجد في سرعة:

- أريدك أن ترفع قميصك وتكشف عن صدرك.

وحين فعل ما طُلب منه، أسرع الجد يفتح تلك المخطوطة، فاندهش "خالد" من كلماتها التي تشع بنور أبيض، وقبل أن يسأل أو يستفسر أسرع الجد يضع المخطوطة حول صدر "خالد"، بحيث تكون الجهة التي بها الكلام ملاصقًة لجلده تماما، ثم ربط تلك الأربطة الأربعة التي تخرج من أطرافها بإحكام خلف ظهره، ثم أسدل قميص حفيده، وقال بحزم:

- لا تنزعها عن صدرك أبدًا سواء بقصد أو بغير قصد.. عليك أن تنام وتقوم وتستحم وتذهب إلى أي مكان وهي مربوطة على صدرك كما هي، ويجب أن تتأكد دائما أن ملابسك تغطيها؛ بحيث لا يراها أحد، ولا تخبر عنها أحدا أبدًا، أفهمت ما أقوله لك يا بني؟

- نعم، يا جدي، فهمت.. ولكن ما هذه المخطوطة؟

أخرج الجد المخطوطة الأخرى التي يمسكها بيده دائما وقال:

- أنا من الجيل الذي يسمى بالجيل الأول من الناجين.

لم يستطع "خالد" كبك جماح نفسه، حتى أنه لم ينتظر ليسمع إجابة سؤاله الأول وهو يقاطع جده ويسأل في لهفة:

- وكيف نجوت حقًّا؟

شرد ببصره بعيدا وهو يقول مبتسما:

- عندما حدث الطوفان، كانت المياه عالية وتجري بسرعة وقوة، مما جعلها تهدم كل شيء في طريقها، وتقتلعه من جذوره، ثم تدفعه أمامها، وبالطبع هدمت بيتنا من ضمن ما هدمت.

صمت قليلا ليبتلع ريقه قبل أن يكمل كلامه ويقول:

- كل ما أذكره هو صوت هدير قوي يكاد يصم الأذان، أعقبه صوت ارتطام جسدي بالماء، غصت عميقًا بالماء، ثم بدأت أختنق حتى أصبحت على وشك الموت، لكن فجأة شعرت بيد تمسك بي، وتسحبني إلى أعلى لتنتشلني من الماء، يد قوية كبيرة ذات أصابع طويلة توحي بأن صاحبها ذو جسد ضخم.. رفع صاحب اليد جسدي في سهولة وأخرجني من الماء لكني كنت قد فقدت الوعي، وعندما استيقظت شعرت بقلق شديد وأنا أتلفت حولي بحثا عن أبي.. تملكني الخوف فأخذت أبكي وأنا أتطلع إلى ذلك المكان الغريب من حولي.

صمت الجد مرة أخرى وهو يحاول أن يهدئ من نفسه بعد أن عصفت به الذكريات، لكن "خالد" لم ينتبه إلى ذلك وهو يحثه على مواصلة الكلام ويقول في لهفة:

- وماذا حدث بعدها؟

- وهنا أقبل علي رجل طاعن في السن يبتسم في طيبة واضحة، ثم ربت بيده على صدري ومسح برأسي، لقد كانت نفس اليد الكبيرة ذات الأصابع الطويلة التي أنقذتني من الغرق.

فتح الجد عينيه عن آخرهما قبل أن يضيف في رهبة:

- لكن الغريب أن صاحبها لم يكن بتلك الضخامة بل كان قصيرًا ممتلئ الجسد يرتدي زيًّا غريبًا.

ثم ضاقت عيناه مرة أخرى وشرد ببصره بعيدا. مرت لحظات والجد على ذلك الحال مما جعل "خالد" يستحثه على مواصلة الكلام مرة أخرى، فعاد من شروده وقال:

- الأغرب أنه حين وضع يده على صدري ومسح برأسي، أنا أتذكر تلك اللحظة جيدًا، ذهب عني الخوف، ولم أعد أبكي، لقد غمرني شعور بالأمان.

صمت الجد مرة أخرى وهو على ما يبدو يستعيد الشعور بالأمان نفسه، خشي "خالد" أن يتوقف جده عن الحديث فسأله:

- وماذا حدث بعدها؟

نظر الجد إليه نظرة خاوية وهو يقول:

- لقد أحضر لي بعض الطعام والشراب ثم قال كلمات بصوت عجيب وبلغة غريبة وما زادني دهشة أنها نفذت إلى قلبي وما زال معناها يسكن صدري، معنى كلامه؛ ألا تسجد لهم وانتظر وسترى الغريب بعينيك وسيفهم الكثير عقلك.

يستمع "خالد" إلى جده في ذهول، ويدور في رأسه ألف سؤال وسؤال، لكنه لم يسأل أيًّا منها واستمع في انتباه إلى جده الذي أردف:

- ومع مرور الوقت عرفت من الذين لا يجب أن أسجد لهم، ولسبب ما لم أدركه في حينه لم يعلم الأسياد بأمري، ولم يقبضوا عليَّ كما فعلوا مع الكثيرين غيري ولأسباب أقل بكثير من هذا.

وصمت الجد وطال صمته، و"خالد" ينظر إليه في تركيز واضح وهو يفكر فيما أخبره به، مما جعل جسده ينتفض حين سأله الجد فجأة:

- أما زلت معي؟

- نعم نعم.

عصفت الذكريات بمشاعر الجد فآثر السلامة واكتفي منها بهذا القدر، وتركها، ثم ذهب مباشرة إلى ما كان يريد أن يقول:

- المهم أني رأيت ذلك الرجل الطاعن في السن نفسه مرة أخرى قبل أن أتم الثامنة عشرة، وأعطاني هذه المخطوطات، وأطلعني على سر كل مخطوطة منها، كما علمني فيما تستخدم، ومن يومها، وأنا أستخدم تلك التي لا تفارقني؛ لأهرب من مراقبة الأسياد، وأتخفى عنهم، فلم يستطيعوا أن يعلموا من أمري شيئًا.

شرد قليلا قبل أن يقول:

- وهو نفسه من اختار لي زوجتي، وهو من علمني الكثير من الأشياء، علمني لغة الأسياد والمبارزة بالسيف وغيرهما.

وهنا لم يستطع "خالد" أن يتمالك نفسه أكثر فقاطعه وهو يقول:

- هناك الكثير من الأشياء التي أود أن أسألك عنها: كيف كنت تهرب من الأسياد؟ وماذا كنت تفعل كل هذه السنين؟ وهل رأيت ذلك الرجل مرة أخرى؟ وما المبارزة بالسيف؟ أريد أن أعرف المزيد.

لكن الجد استوقفه بيده وهو يقول:

- ليس هناك وقت لهذا كله، لكنني سأجيب على السؤال الأهم.. نعم قابلته بعدها كثيرًا، ولكن المرة الأخيرة هي الأهم.

فانتبه "خالد" مرة أخرى والجد يضيف:

- رأيته منذ يومين، ظهر لي فجأة كعادته.

ابتسم الجد رغمًا عنه حين وصل بالكلام إلى هذا الجزء وهو يضيف في صوت غلبت عليه السكينة:

- لكنه في هذه المرة لم يكن بمفرده، فقد جاء ومعه رجل يشع نورًا، والذي أعتقد أنه هو نفسه الذي رأيته أنت في حلمك، ولم يتكلم، بل ترك رجل النور يتكلم، وقد كان، وبعد أن انتهى من كلامه أعطاني المخطوطة التي وضعتها على صدرك الآن، ثم طلب مني أن أخبرك أن تواجه قدرك.

- وكيف ذلك؟

- ستعرف كل شيء في حينه.. كل شيء وله وقته.

ثم نظر إليه في جدية واضحة وهو يقول:

- لا تسجد لهذا التمثال المنتصب أمام الكهف، ولا لأي تمثال آخر.

التفت الجد ناحية ذلك التمثال وهو يستطرد:

- هذا ما أرادني رجل النور أن أقوله لك أيضًا.

وهنا نظر "خالد" إلى التمثال بدوره، نظر إليه نظرة طويلة استحوذت على تفكيره تمامًا حتى أنه لم ينتبه إلى جده الذي عاد يلتفت ناحيته وهو يسأله:

- أفهمت؟

لم يبدو على "خالد" أنه حتى قد سمعه، كأنما يرى هذا التمثال بهذه التفاصيل لأول مرة، هو تمثال لرجل يثني رجله اليمنى، ويرتكز بركبته اليسرى على قاعدة حجرية كبيرة، ويرتدي رداء ينسدل على ظهره، ويرفع طرف الرداء بيده اليمنى فيخفي به وجهه ورأسه، ويمسك في يده اليسرى عصا أشبه بالصولجان منحوتة ببراعة، وهناك عند قاعدة التمثال توجد بعض الكلمات المكتوبة بلغة الأسياد.

وعندما وصل إلى هذه النقطة التفت إلى جده وهو يقول في انزعاج بعد أن شعر بقبضة تعتصر صدره وهو ينظر إلى هذا التمثال:

- ماذا تعني تلك الكلمات على قاعدة التمثال؟ ولمن هذا التمثال؟

فأجابه الجد في هدوء:

- ليس الآن، كل في حينه.

هم "خالد" بتوجيه سؤال آخر لكن صوت الأم الآتي من داخل الكهف أسكته:

- "خالد"، أبي، أين أنتما؟

ثم ظهرت وهي تخرج من الكهف وتكسو وجهها ابتسامة حانية وتقول:

- هيّا إلى الإفطار.

بعد الإفطار قال الجد فجأة بصوت عالٍ بحيث تسمعه الأم أيضًا:

- "خالد"، قم لنمشي معًا قليلا.

وغمز لـ"خالد" بعينه فأجاب بسرعة وبصوت عال:

- حسنا، هيا بنا.

- إلى أين تذهبان؟!

فأجاب الجد في سرعة:

- سوف نمشي قليلا، يا بنيتي.

ثم ابتسم وهو يستطرد:

- لا تقلقي.

سار "خالد" بجوار جده في سعادة واضحة وهو يسرع الخطى، قبل أن يلهث وهو يحاول أن يساير سرعة جده ونشاطه اللذين لا يتناسبان وسنه، حتى أنه ابتسم وهو ينظر ناحيته، لفتت الابتسامة نظر الجد، فضاقت عيناه، وسأله بصوت حذر:

- ما معنى تلك الابتسامة؟

- لا شيء، أنا فقط سعيد بوجودي معك.

- وأنا أيضا.

لم يتفوها بحرف واحدة بعدها، حتى وصلا إلى ذلك المكان الذي بدا لـ"خالد" أنه قد ظهر فجأة، فبينما كان يتبع جده وهو يدور حول تل مرتفع ظهر ممر ضيق، بعد أن عبره خلف جده وجد نفسه في مكان فسيح ممهد بالرمال تحيط به جبال عالية من جميع جوانبه فيما عدا ذلك الممر الضيق الذي دلفا منه.

تبع "خالد" جده إلى منتصف الساحة الرملية تمامًا، توقف الجد ثم فتح حقيبته وأخرج منها غبارا شديد اللمعان، نثره في الجو من حولهما ثم قال في ارتياح:

- الآن يمكننا أن نبدأ.

وضع الحقيبة على الأرض وأخرج منها كتابا صغيرا، أعطاه إلى "خالد"، وقال في حماس:

- انظر في محتواه جيدًا.

شعر "خالد" بالدهشة حين فتحه؛ لقد كان يحتوي على صور فقط، صورة لرجل يحمل في يده شيئًا ما وهو يرفعه أمامه، ثم يخفضها في صورة أخرى، ومجموعة أخرى من الصور للشخص نفسه وهو يقف أمام شخص آخر والذي يحمل نفس الشيء في يده.

- ما هذا؟!

ابتسم الجد وهو يجيب:

- كتاب يشرح فن القتال بالسيف، آن الأوان لتتعلم كيف تقاتل بالسيف.

أخرج الجد من حقيبته سيفين خشبيين، ألقى بأحدهما إلى "خالد" وهو يقول في حماس:

- خذ سيفك أيها البطل الهمام.

ثم بدأ يدرب "خالد" على كيفية القتال بالسيف، يعلمه الدفاع والهجوم، الكر والفر، ويعلمه بنقاط التوازن في السيف.

ظلا يترددان على نفس المكان يوميا، والجد ينثر الغبار اللامع قبل التدريب.. في كل مرة يدربه على مهارة جديدة من مهارات القتال بالسيف، التوازن، السرعة، خفة الحركة، المرونة، الدفاع وصد الهجوم، ثم أخيرا المناورة والهجوم.

بعد فترة من التدريب اليومي المتواصل والتي تجاوزت الشهر بقليل، وبينما هما يقفان في نفس المكان، فاجأه الجد بإعطائه سيفًا لامعًا من المعدن هذه المرة، قصيرا عريضا، بخلاف السيف الذي كان يحمله الجد في يده فقد كان طويلًا رفيعًا، وبدأت المرحلة الثانية من التدريب، واستمرت شهرا آخر.

اطمأن الجد إلى إتقان "خالد" لهذا الفن تماما، فقد كان "خالد يتعامل مع السيف وكأنه ولد به، وعنما وصلا إلى الكهف في هذا اليوم، دخل الجد مع "خالد" إلى غرفة الأخير، ثم أخرج الجد السيف القصير وأعطاه إلى "خالد" وهو يقول:

- هو لك الآن، لقد استحققته عن جدارة، حافظ عليه لأنه سوف يكون خير معينا لك عند الحاجة.

ثم نظر إليه نظرة طويلة عميقة؛ شعر معها "خالد" أنه يودعه، وبالفعل في الصباح، عندما استيقظ من نومه وخرج يبحث عن جده،

لم يجده، فعاد إلى حجرته مسرعًا وأخرج السيف من داخل صندوق ملابسه، حيث وضعه بالأمس.. قام ورفعه أمام وجهه فلاحظ أن السيف قد أصبح أثقل وزنا، وبينما هو يفكر في كيفية حدوث هذا ولماذا، ظهرت كلمات غريبة مكتوبة بحروف من نور على السيف، حروف النور نفسها التي تزين المخطوطة حول صدره.

*****

استيقظ "خالد" ذات صباح وهو يلهث في قوة، كأنه بذل مجهودًا يفوق طاقته أضعافا مضاعفة، فرد يديه عاليا وحرك رأسه ورقبته يمينا ويسارا، لعله يطرد بعضا من هذا التعب الذي يشعر به، ولكن بلا جدوى.

إنه نفس الشعور بالتعب الذي بدأ ينتابه مؤخرًا حين يستيقظ من نومه، خصوصًا عنما يبذل مجهودًا ما في حلمه، أخذ يتذكر ما رآه في الحلم، لقد رأى نفسه نسرا يحلق في السماء، فزوى ما بين حاجبيه وهو يتمتم بينه وبين نفسه "الشيء الملفت بالفعل أنني لم أستغرب نفسي وأنا في هذه الهيئة، مثلها مثل أية هيئة أخرى اتخذتها في أحلامي من قبل، والغريب أني في كل مرة كنت أعلم ما يجب علي فعله"..

أخذ النسر يحلق فوق المناطق الزراعية وينظر بعينيه الثاقبتين حتى إذا رأى أحد تلك الحيوانات القارضة أو

الزواحف الضارة، هبط منقضًّا عليه بسرعته ويغرس فيه مخالبه الحادة، ثم يطير به بعيدا ليلقي به في هذا المكان النائي، حيث تجمع كل النسور الأخرى التي على شاكلته الزواحف والقوارض الضارة.

وكالعادة يقوم بعمله هذا في همة ونشاط، حتى يستيقظ من نومه في تمام السابعة تماما ليبدأ روتين يومه دون شكوى أو ملل، كأنها الفطرة التي فطر الناس عليها، أو كأن الحياة الحقيقية للإنسان لم تعد في استيقاظه ولكن في منامه، حتى أنه لم يعد يهتم بما يفعله في ساعات نهاره، فقد كان لا يطيق صبرًا حتى يذهب إلى حجرته وينام، وهكذا مرت سبعة أشهر دونما يرى جده أو يتحدث مع أحد سوى أمه، ولم يكن يفعل ذلك إلا نادرًا.

جلس يستعيد حلمه الأول، ذلك الحلم الغريب الذي استيقظ منه فزعا وجرى مسرعا يحكيه لجده وعم درويش، يذكر ماذا قال له الأخير وقتها، لقد أخبره بأنه لم يحدث من قبل أن حلم أحدهم قبل أن يتم الثمانية عشرة سنة، زفر في قوة حين وصل بذاكرته إلى تلك النقطة ثم غمغم: لكنني فعلتها، ومن ليلتها وأنا أرى أحلامًا كثيرة ومختلفة، أرى أشياء غريبة لم أرها من قبل في يقظتي ولا أعلم عنها شيئا، والغريب أنه في الأحلام أعلم ما هي هذه الأشياء، أعرف أسماءها وماهيتها، وماذا تفعل، بل وأكثر من ذلك فأنا أعرف شعورها في حينه؛ لأني في وقتها أشعر بما تشعر بل أصبح أنا هي.

شرد ببصره وعلا صوته رغمًا عنه وهو يقول:

- في أحلامي أكون أنا نفسي الكيان الآخر، أنا على وشك أن أفقد عقلي، من هؤلاء؟

زفر مرة أخرى وهو يقول في نفسه:

- جدي، كم أشتاق إليك! أين أنت الآن؟ أحتاج إلى الكلام معك واستشارتك، هل أزور عم "درويش" في كهفه وأتحدث معه؟ ولكن ماذا أخبره؟ هل أخبره عن تلك المرة التي رأيت نفسي فيها وكأني أعمل في الزراعة؟ وأخبره كم كنت مزارعًا ماهرًا! أم أخبره عن المرة الأخرى حين كنت أعمل خادمًا لأسياد عمالقة تبدو عليهم الغلظة والنهم للطعام والشراب؟ أم تلك المرة التي كنت فيها طبيبًا؟ هل أقول له إن أحداث كل حلم من تلك الأحلام تتكرر معي لمدة معينة، ثم أبدأ بعدها في رؤية حلم آخر مختلف عنه؟! هل أقول له بأني في كل حلم كنت أعلم دوري وما علي فعله تماما؟ هل سيصدقني من الأساس؟

وهنا تذكر وعده لجده بعدم الحديث عن أحلامه مع أحد أبدا.

- ماذا بك، يا بني؟

أفاق من شروده على صوت أمه التي لم يشعر بها وهي تدخل غرفته، فرد قائلا:

- لا شيء.

- أنت لم تبتعد عن الكهف منذ وقت طويل.

- لا أريد أن أرى أحدا.

- أعلم أنك تفتقده، وأنا افتقده أيضا، لقد أردت أكثر من مرة أن أتحدث إليك، وفي كل مرة كنت أخبر نفسي بأنها فترة وستنتهي، لكن الأمر طال.

- ماذا على أن أفعل؟

بعد لحظات من الصمت قالت:

- اخرج لزيارة بعض زملائك، "نجيب" مثلا. لقد أتى لزيارتك أكثر من مرة، لكنك كنت ترفض مقابلته.

بدت له الفكرة مناسبة في حينها، فنهض من فراشه وغير ملابس النوم البيضاء، وتناول إفطاره مع أمه ثم خرج متوجهًا إلى حيث يوجد كهف "نجيب"، والذي يقع في نفس مستوى كهفه.

كان يمشي في تؤدة وهو يتلفت هنا وهناك متفحصًا الأشياء من حوله، لاحظ أن هناك أشياء يراها لأول مرة، وأشياء أخرى كان يراها من قبل دون أن تلفت نظره، لقد بدت بلا معنى له في هذا الوقت.. لقد تغيرت نظرته للأمور من حوله كثيرا.

وبينما هو على حاله هذا كاد يقفز من هول المفاجأة حين وقع بصره على تمثال يقف شامخًا على جانب باب أحد الكهوف، تمثال

على هيئة نسر، كما يراه تماما في أحلامه.. اقترب من التمثال في حذر، لم يكن هناك أحد من ساكني الكهف بالخارج مما شجعه على الاقتراب أكثر حتى وقف أمام هذا التمثال.

أخذ يتفحصه وهو يتمتم: نعم إنه هو، وبالتفاصيل نفسها، ولكن كيف هذا؟، ثم لفت نظره تلك الكتابة التي كتبت بلغة غريبة ربما هي لغة الأسياد، وقبل أن يسترسل أكثر في أفكاره سمع صوتًا يأتي من داخل الكهف ينبئ بخروج أحدهم، فأسرع الخطى مبتعدا.

أخذ يتفحص التماثيل القابعة أمام الكهوف في طريقه، وعندما لا يجد أحدهم بقرب كهف ما، يقترب من التمثال ويتفحص الكلام المكتوب.. تعرف من التماثيل التي رآها على النسر والأفعى والأسد والثور، وعندما وصل إلى كهف "نجيب" رأى تمثالًا لمزارع عرف "خالد" معناه على الفور؛ فقد رأى نفسه مزارعًا في حلم من قبل، فتقدم منه ووقف أمامه، لفت نظره أن وجه التمثال مطموس الملامح، مجرد وجه بلا أنف أو عينين أو فم، وبينما يتفحص الكلام المكتوب على قاعدة التمثال الحجرية انتبه لأول مرة إلى تكرار نفس الكلمة الأولى في جميع التماثيل التي اقترب منها، وكأنها كلمة تقديم أو لقب.

لمعت عيناه وهو يقول بصوت عال: "(سيد)، الكلمة تعني سيد ولا ريب، سيد نسر، سيد ثعبان وهكذا.. والنسر والثعبان هي مراتب أو رتب".

انتفض جسده عندما سمع أحدهم يقول:

- "خالد"! ماذا تفعل عندك؟

*****

جلس "خالد" و"نجيب" على بعض الصخور خارج الكهف، وقال الأخير وهو يبتسم لصديقه الذي لم يره منذ فترة طويلة:

- أين كنت؟ إنك لم تظهر ربما منذ تسعة أشهر.. نعم، منذ عيد مولدك.

- موجود.

- موجود! ماذا تعني؟ لقد كنا نتبادل الزيارت من قبل، وكنا نجلس ونتحدث سويا، نلعب لعبة ما أو نمشي هنا وهناك.

صمت لحظات ثم أكمل في حذر:

- لكنك اختفيت فجأة، حتى أنني قد ذهبت إلى كهفك للسؤال عنك أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت أمك تخبرني أنك نائم. مط شفتيه قبل أن يضيف:

- لقد فهمت أنك لا تريد رؤيتي مما جعلني أتوقف عن زيارتك بعدها.

لم يرد "خالد"، مما جعله يعقد حاجبية وهو يسأله في حيرة:

- ماذا هناك حقا؟!

ولما طال الصمت أكثر مما ينبغي، لان صوت "نجيب" وهو يضيف في صدق:

- أخبرني، فأنا صديقك.

تردد "خالد" كثيرًا، ثم فتح فمه أخيرا وهو يضغط على الحروف أملًا أن يمنع الكلام من الخروج، لكنه في النهاية خرج همسا:

- هل تحلم يا "نجيب"؟

- أنت تسخر مني! أليس كذلك؟!

لكن نظرة واحدة إلى ملامح وجه "خالد" الجادة جعلته يراجع نفسه ويقول في حيرة:

- هل أنت جاد؟!

ثم هز رأسه في قوة يمينا ويسارا وقال في ثقة:

- لا أحد يحلم قبل بلوغ سن التكليف، وأنا أصغرك بشهرين، هل نسيت؟

انتهز "خالد" الفرصة ليتهرب من الكلام فقال سرعة:

- صحيح، يتبقى لي ثلاثة أشهر ولك خمسة حتى بلوغ سن التكليف.

- هل هذا ما يجعلك قلقا هكذا؟

رد في اقتضاب:

- بالضبط.

انضم إليهما شاب آخر عرَّفه "نجيب" إلى "خالد" بأنه صديق من مستوى مختلف، اسمه "مراد". من كلام "مراد" تبين لـ"خالد" أنه شاب فطن، كما أنه ملم بأمر سن التكليف هذا، خصوصًا عندما تحدث عن التغيرات التي لاحظها على أخيه الأكبر "سامر" عندما بلغ سن التكليف، ومنها قوله:

- بعد أن تجاوز الثامنة عشرة بأيام أصبح وكأنه إنسان آخر، تغيرت شخصيته تمامًا؛ فلم يعد يضحك مثل السابق، أو يتحدث معي إلا لماما، وأصبح عدائيا مع الجميع، وعندما سألته عن ذلك الأمر أجابني بأن كل ما يهمه الآن هو رضا الأسياد.

كانا يستمعان إلى "مراد" في دهشة؛ إذ كانت تلك المرة الأولى التي يخبرهما أحدهم بمثل هذا الكلام عن التكليف، جد "خالد" نفسه لم يذكر شيئًا مثل هذا من قبل، لكن هذا لم يمنع الأخير أن يقول:

- إذًا فقد تغيرت شخصية أخيك!

أجاب في صوت غلب عليه الحزن:

- نعم، لقد أمسى أكثر قسوة وغلظة، وكل ما يشغله الالتزام بالقوانين، والاجتهاد في عمله نهارا، والمواظبة على النوم في ميعاده ليؤدي دوره في أحلامه، روتين، وجمود، وطاعة أسياد، ملخص شخصيته بعد التكليف.

لاحظ "خالد" الضيق الواضح في كلام "مراد"، واستنتج منه مدى حبه لأخيه، لكنه أراد أن يستزيد، فسأله:

- وكم حلمًا مختلفًا رآه أخوك "سامر" حتى الآن؟

- لا يمكن لأي أحد أن يرى سوى حلم واحد وبمهمة واحدة، يتكرر معه طوال فترة تكليفه.

ثم استطرد:

- كما يقول أبي هي مهمة مقدسة يجب على الإنسان أن يؤديها في تفان وطاعة.

وعندما نظر إلى "خالد" عقد حاجبيه من الدهشة؛ حيث كان الأخير يفغر فاه عن آخره.

*****

لاحظ الجميع شرود ذهن "خالد" الذي يجلس منزويا هناك، ولا تبدو عليه أية فرحة تتناسب والمناسبة التي اجتمعوا داخل كهفه من أجلها.

حضر "درويش" و"نجيب" و"مراد" الذي أصبح صديقه، كما جاء بعض كبار السن وبعض النساء والأطفال والصبية، من الممكن أن تقول أنهم كانوا يجلسون تقريبا بنفس الترتيب والكيفية التي كانوا يجلسون بها في عيد ميلاده السابق بزيادة شخص أو اثنين، وغياب شخص.

ومع النار والمشروب الساخن الذي أعدته الأم، كان الاحتفال يشبه تماما ذلك الذي كان هنا منذ سنة كاملة بالضبط، مع اختلاف واحد؛ جدَّه حافظ لم يكن موجودًا، وهو ما جعل ملامحه تتحول إلى الضيق والقلق والحزن. حتى أن معظم الموجودين كانوا لا يشعرون بالراحة، وينتظرون بفارغ الصبر أن يمر الوقت وتأتي الساعة السابعة على الأقل ليذهبوا إلى كهوفهم.

بغياب الجد فقد الاحتفال روحه، ومع حزن "خالد" الواضح والذي لم يبذل أيَّ جهد لإخفائه صار هذا اليوم من أسوأ الأيام التي اجتمعوا فيها على الإطلاق. وأخيرًا جاءت الساعة السابعة، وانصرف الجميع في عجالة كأنما يفرون بأرواحهم.

قبل أن ينصرف "درويش" اقترب من "خالد" وجلس بجواره، ثم قال في صوت يبدو عليه الصدق:

- من المؤكد أن هناك أسبابا منعته من الحضور، ومن المؤكد أنه سوف يحضر حين يستطيع ذلك. أنت تعلم كم يحبك، أليس كذلك؟

أومأ "خالد" برأسه متفهما.

- هل هناك أيُّ شيء أستطيع فعله لك؟

- شكرًا لك يا عم "درويش".

انصرف "درويش" ليترك المكلف الجديد وأمه وحدهما، فقام "خالد" في حدة، ومشى باتجاه غرفته مسرعا، حاولت أمه أن تلحق به لكنه استوقفها وهو يشير إليها بيده:

- سوف أدخل غرفتي لأنام، أرجوك اتركيني نائمًا حتى أستيقظ من تلقاء نفسي.

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، بمجرد أن دخل غرفته أخذ يبكي في شدة، وبعد أن فرغت دموعه أو كادت، قام ليغير ملابسه لينام، لكنه فوجئ بأمه تستأذنه في الدخول وعندما دخلت عليه، ورأت آثار الدموع في عينيه احتضنته في لهفة وهي تقول بصوت حانٍ:

- أعلم أنك تفتقده، لكنك كبرت الآن وعلى وشك التكليف، ويجب عليك أن تغير من نفسك لتكون نموذجًا في اتباع أحكام الأسياد، وألا تكون أبدًا سببًا في جلب سخطهم عليك أو علي.

كانت تطلع إليه في حنان قبل أن تعلو وجهها ابتسامة رقيقة وهي تضيف في هدوء:

- أريد منك أن تكون قريبًا منهم قدر المستطاع.

صمتت لحظات استطاعت فيها أن تستحوذ على انتباه "خالد" الذي ابتسم بدوره وهو يتطلع إليها، ثم استطردت بنفس الهدوء:

- ففي النهاية، هم الأسياد.

تركته ليغير ملابسه، وبينما يخلع قميصه اصطدمت يده بالمخطوطة التي على صدره، وجد نفسه دون أن يشعر يسترجع كل ما دار في الأشهر الماضية التي قضاها جده معه، كلامه، نصائحه له، وأيضا تدريبه على استخدام السيف.

ماج عقله بالصراع بين ما أوصاه به جده وبين ما تطلبه أمه في تلك اللحظة الحرجة، ثم تذكر وعد جده له بأنه سوف يكون معه دائما ولن يتركه أبدا، فهاج صدره وشعر بثقل خلف مكان المخطوطة تماما.

أحسَّ بغصة في حلقه وهو يفكر في مرحلة التكليف التي على وشك البدء، وعليه أن يختار، لم يشعر بنفسه إلا وهو ينتزع المخطوطة عن صدره، ثم يلقي بها في صندوق ملابسه بجوار السيف.. انتفض جسد "خالد" حين دوت تلك الضحكة المخيفة، تلك الضحكة التي أقسم فيما بعد أن مصدرها التمثال القابع أمام الكهف، ضحكة بثت الخوف في قلبه، لدرجة لم يشعر بمثلها من قبل، فهرع إلى فراشه وأغمض عينيه ونام.

نام في الثامنة تمامًا ليبدأ تكليفه، رأى نفسه في مكان غريب، إضاءته خافتة تتداخل فيها عدد من الألوان التي لا يستطيع تمييزها، يجلس شبه عارٍ على فراش كبير مريح، ويمسك في يده كوبًا به سائل أحمر ذو رائحة نفاذة، وبينما يرفع ذلك الكوب ويقربه من فمه، تقدمت منه امرأة شديدة الجمال وتوقفت أمامه، ثم بدأت تخلع ملابسها بطريقة تثير شهواته.

ظل يضاجعها طوال الليل حتى استيقظ فجأة في تمام السابعة، نهض وغادر فراشه في آلية، وبعد أن تناول إفطاره مع أمه جلس في خضوع عجيب، لم يشعر بمرور الوقت لكنه قفز من مكانه فزعا حين سمع صوت عربة تقف أمام الكهف.. نظر إلى أمه التي بدا عليها التوتر وقد علمت على الفور ما يعنيه هذا، فسألته في سرعة:

- هل حلمت بالأمس؟

- نعم، يا أمي.

بدا عليها القلق الممزوج بالفرحة وصغيرها قد بدأ تكليفه، فسألته:

- ماذا رأيت في حلمك؟

طأطأ رأسه خجلًا ولم يجِب.

- لا عليك، هيا ارتدِ ملابسك، وخذ هذه معك.

مد "خالد" يده ليأخذ قناع الغشاوة من أمه، وما أن أمسكه حتى شعر بقشعريرة تسري في بدنه مع ملمسه الرخو، ثم رفعه أمام وجهه يتفحصه عن قرب، وشعر بالدهشة فهو يبدو كالضباب الذي يسود الجو، لكنه أكثر كثافة وأشد تماسكا.. انتفض جسده فجأة وأمه تصرخ عليه:

- هيا أسرع وضعْ قناع الغشاوة على عينيك.

ذهب ليغير ملابس النوم، فارتفع صوتها أكثر وهي تقول في حماس:

- ويجب أن تظل ناكس الرأس أمام التمثال في الخارج حتى يأخذوك ويذهبوا بك، وارتدِ قناع الغشاوة.

علا صوته وهو يقول في ضيق:

- كفى يا أمي، أنا على وشك الخروج بالفعل.

*****

سارت العربة لفترة من الزمن و"خالد" بداخلها لا يرى شيئا، ثم فجأة أحس وكأنها تطير به في الهواء مع ذلك الشعور بخفة الوزن وزيادة السرعة، كان يعلم أنه لا بد أن يصمت تماما في حضرة خدام الأسياد فهم في النهاية جاؤوا من طرف الأسياد أنفسهم، جال في عقله أنهم ربما يكونوا من الأسياد أيضا، فربما يكون الأسياد أنفسهم ينقسمون إلى درجات بعضهم فوق بعض.

سرعان ما نفض تلك الأفكار عن رأسه وهو يخبر نفسه أنه لابد أن يحسن التصرف، وأن يكون نموذجًا في حسن الأدب والسلوك من أجل أمه، ولن يظهر ذلك إلا بطاعته، سيطر عليه شعور بالقلق والخوف من المجهول الذي يسير إليه، لكنه كان متحمسا ليختبر ذلك الجزء من الحياة.

شعر بالعربة تهبط به في سرعة، ثم توقفت، ليصك أذنه صوت غريب له صدى طويل ورنة مميزة وهو يأمره بالترجل من العربة، وعلى الفور أطاع الأمر متحسّسًا طريق نزوله، وما أن أصبح خارج العربة حتى سمع ذلك الصوت مرة أخرى يتردد صداه داخل عقله، ويقول بنبرة آمرة:

- اخلع القناع.

خلعه خالد على الفور.

- افتح عينيك وتقدَّم حتى تعبر من البوابة كما يفعل من أمامك.

فتح "خالد" عينيه فأصابته الدهشة، لقد اختفت العربة.. أخذ يتلفت حوله وهو يبحث عن مصدر الصوت وقد ازدادت دهشته عندما لم يجد أحدًا، نظر أمامه فرأى ثلاثة من الشباب يقفون على مسافة منه، ولكن ما أدهشه بالفعل هو طبيعة المكان الذي يقف فيه؛ لقد كان يقف في مكان واسع غريب، مجرد صحراء جرداء مترامية الأطراف، لا يرى سواها على مرمى البصر، وسماء زرقاء صافية، مكان خالٍ من الجبال والكهوف، بل ومن كل شيء إلا من ذلك الشيء الذي كان يقف أمامه الشباب الثلاثة، والذي بدا له كبوابة من نوع ما يملؤوها فراغ أسود.

فسأل في حيرة:

- من الذي كان يتحدث إلي الآن؟

التفت إليه أحدهم وهو يقول بصوت خافت:

- إن ذلك الصوت يتردد في العقول، ولا تسمعه الأذن.

هم أن يسأله سؤالًا آخر، لكنه لم يجده أمامه فقد عبر من خلال البوابة، فاخترق ذلك الفراغ الأسود ثم اختفى.. تسمر "خالد" في

مكانه وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم استجمع قواه وأغمض عينيه واندفع في قوة نحو ذلك الفراغ الأسود ليعبر بدوره، اندهش حين عبره في سلاسة ونعومة ليجد نفسه في مكان آخر مختلف تمامًا.

أرض كبيرة تغرق فيما يشبه الظلمة لولا ذلك الضوء الخافت والذي لا يرى مصدره، وسماء مظلمة، ليس فيها شمس ولا قمر أو نجوم. كان الجميع من حوله ينتشرون بنظام محدد وهم يرتدون جميعًا نفس الملابس والتي تتكون من قميص واحد طويل لونه أصفر، البعض منهم يمسك في يديه فئوس يحفرون بها في الأرض ويخرجون صخورا سوداء، والبعض الآخر يحملون تلك الصخور السوداء ثم يلقونها في تلك الحفرة الكبيرة العميقة هناك.

أحس أن قلبه يكاد يتوقف عن الخفقان وهو ينظر إلى لسان نار عظيم يخرج من تلك الحفرة، نار شديدة الحمرة لكن ظلها أسود.

تمتم بينه وبين نفسه: هي نفس عين النار التي أراها من الكهف على مرمى البصر ولا شك، لكن لونها يبدو مختلفا، وذلك الظل الأسود لا أراه من مكاني عند الكهف، مهلا! كيف نستطيع أن نقف بجوار ذلك اللهب العظيم دون أن نتضرر؟ أهي البوابة التي أتاحت لنا ذلك؟

توقف عن التفكير، وقد لفت نظره شخص يقترب منه وهو يقول:

- تحياتي، اسمي "عمر".

عرفه "خالد" على الفور، لقد كان نفس الشخص الذي تحدث إليه قبل أن يعبر البوابة.

أشار "عمر" إلى مكان ما وهو يكمل كلامه:

- ستجد هناك ملابس تناسبك وأدوات للحفر، اذهب وارتدِ قميصك وأحضر أداتك، لتبدأ الحفر معنا.

ذهب إلى حيث أشار "عمر"، وفتش عن القمصان حتى وجدها، ارتدى واحدًا وأخذ أداة حفر وبدأ العمل معهم.. بعد فترة اقترب "خالد" من "عمر"، وقال:

- أنا "خالد".

- مرحبا.

- ما هذه الصخور؟ ولماذا نلقيها في النار؟

أشار له "عمر" أن يصمت الآن على أن يتحدثا فيما بعد..

بعد ساعات من العمل الشاق، دوى صوت الحاد، فتوقف الجميع عن العمل وتوجهوا إلى بوابة أخرى ظهرت من العدم عبروها جميعا في صف واحد، شعر "خالد" بالدهشة لرؤية تلك الأطعمة المختلفة التي لم يرها من قبل، كما رأى أنواعا عديدة من الشراب الذي لا يعرف كنهه.

أشار "عمر" لـ"خالد" أن أقبل، وحين اقترب منه همس:

- هي صخور تجعل النار مشتعلة باستمرار، وتلك هي النار التي أشعلها لنا أسيادنا لتبقينا دافئين، وإلا كنا هلكنا منذ زمن طويل، لا بد أنك من المتفانين حتى يختارك الأسياد لمثل هذا العمل العظيم.

سأله "خالد" في حذر:

- وهل هذا هو العمل الذي سأقوم به كل يوم؟ ألن يتبدل في مرحلة ما؟

عقد "عمر" حاجبيه ولم يجد ردًّا، فبدا واضحا أنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل، لكنه قال:

- بحسب ما يرى الأسياد.

بعد تناول الطعام الشهي، عبر الجميع البوابة رجوعًا إلى عملهم، والغريب أن "خالد" كان يؤدي عمله في همة ونشاط، فقد كان كل ما يشغله الآن رضا الأسياد عنه، ومن داخله يوقن مثله مثل الجميع أن الأسياد يراقبونهم طول الوقت.

بعد فترة من العمل المستمر يجهل أكثرهم حقيقتها، دوى ذلك الصوت القوي معلنا انتهاء عمل اليوم، تنهد "خالد" وأخذ نفسًا عميقًا وفعل مثل "عمر"، فخلع قميص العمل ووضعه في مكانه، وهمَّ يتوجه إلى البوابة التي جاء منها ليخرج ويعود إلى

أمـه فـي الكهـف، شـعر بالسـعادة واللهفـة للعـودة لأمـه فيخبرهـا عـن أول يـوم عمـل لـه فـي خدمـة الأسـياد، وبينمـا يرتـب الأمـر فـي رأسه سمع "عمر" يقول:

- "خالد"، أين تذهب؟

- سأتخذ نفس الطريق وأعبر البوابة لنعود إلى كهوفنا.

ضحك "عمر"، وهو يتجه نحوه ويقول بصوت ساخر:

- لم يعد هناك عودة، لقد تغيرت القوانين، لقد انتشرت الأخبار منـذ أيـام، المكلفـون حتـى سـن الخامسـة والعشـرين سـوف يعملـون ويبيتون في ضيافة الأسياد حتى يُؤذن لهم بالانصراف.

أُسْقِطَ في يد "خالد"، فقد كانت المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الكلام، لم يتمالك نفسه وهو يسأل في ضيق واضح:

- ومتى تغيرت ؟

- اليوم هو أول أيام التغيير.

عقد "عمر" حاجبيه وهو يقول في حذر:

- وهو أول أيام تكليفك، أليس كذلك؟

أومأ "خالد" برأسه دون أن يتكلم، ثم قال وهما في طريقهما إلى موضع تغيير الثياب:

- إن أمـي ستشـعر بـالقلق علـيَّ، كمـا أنهـا سـوف تشـعر حتمـا بالوحدة، فأنا لم أتركها ليلا من قبل.

نظر إليه "عمر" نظرة استنكار وهو يقول:

- تقلق عليك وأنت مع الأسياد! مستحيل، الأولـى بهـا أن تشـعر بالفخر.

مرت الأيام على نفس النسق؛ العمل نفسه بالنهار، والحلم نفسه بالليل، حيث يجامع تلك المرأة الجميلـة، وبمرور الوقت، بدا لـ"خالد" وكأنـه نسـي هويتـه، وكأنـه قـد تحـول إلـى شـخص آخـر تمامًـا، لكـن الغريـب حقـا أنـه لـم يعـد يفكـر فـي أمـه ولا حتـى فـي جده، كأنمـا نسـي شعور الاشتياق إلى أحبابه، أو كأنما صار لا له أحباب.

فـي البدايـة حـاول جاهـدا أن يسـتعيد هويتـه بـلا جـدوى، وفـي النهاية توقفت تلك المحاولات، واستسلم لهذه الحياة الجديدة، لفت نظره أنه منذ تكليفه لم يعد الأمر مثلما سبق، لقد أصبح يرى حلما واحدا، يتكرر معه في كل ليلة، لكنه لم يلق بـالا، حيث تأكد لـه كـلام "مـراد" عن التكليف والذي يأتي بحلم واحد يراه المكلف كل ليلة.

في إحدى المرات بينما يجامع تلك المرأة في الحلم انتابه شـعور بالكره تجاهها، كما شعر بكره لما يفعله معها، وتمنى لو أنه يتوقف، لا يعلم كيف تسلل ذلك الشعور إلى نفسه فجأة، ولا كيف تغيرت المرأة، فلم يعد يراها بهذا الجمال، كأن شكلها يتبدل إلى عجوز قبيحـة قصـيرة

القامة، محنية الظهر، شعرها أشعث طويل، وعيناها صفراوان بلا حاجبين وأنفها لا يكاد يظهر مع ضخامة وجهها وفمها الكبير.

استيقظ في فزع وخوف، ولم يستطع النوم مرة أخرى في تلك الليلة، وفي الليلة التالية رأى الحلم نفسه ولكن مع تفصيله واحدة مختلفة، لقد تغيرت المرأة، وعبثًا حاولت إغراءه لكنها لم تستطع، ثم عاد الأمر معه كما سبق، يرى كل بضعة أيام حلمًا جديدًا يستمر معه ثم يتغير.

كان يعلم أنه ممنوع عليه أن يبوح بأفكاره لأيِّ شخص كان، أو حتى يحكي عن أحلامه، هو لا يتذكر كيف يعلم ذلك، ولكنه يفعله وكأنه ولد به أو كأنها الفطرة، فأمسك "خالد" نفسه عن الكلام طوال سبعة أسابيع منذ يوم تكليفه، ولكنه سأل "عمر" ذات مرة هامسا:

- هل تحلم يوميًّا يا عمر؟

نظر إليه "عمر" وقد أدهشه السؤال، ولكنه أجاب بصوت حذر:

- نعم، أنا أحلم يوميًّا منذ أن أتممت الثامنة عشر.

سكت لحظات ثم استطرد:

- مثلي في هذا مثل الجميع، هذا هو الحال، أليس كذلك؟

لم يجبه "خالد" على الفور، بل كان ينظر إليه في شرود، ثم تجرأ وسأله في سرعة:

- وماذا ترى في حلمك؟ وهل يتكرر الحلم نفسه معك يوميا؟

نظر إليه "عمر" في شك، عبَّرَ عنه صوته وهو يقول:

- من الأفضل أن نعُود إلى العمل، الآن.

ساد الصمت بينهما طوال ساعات العمل، وحين ارتفع ذلك الصوت القوي الذي يعني نهاية العمل اليوم، وقف "خالد" ينتظر "عمر" الذي ما لبث أن اتجه نحوه وهو يجر قدميه جرا، ساد الصمت بينهما قبل أن يقول "عمر" فجأة بصوت منخفض:

- نعم يا "خالد"، أنا أحلم يوميًّا بالحلم نفسه.

وقبل أن يسأله "خالد" عن ماهية حلمه استطرد "عمر" قائلًا في شموخ وفخر:

- أرى نفسي مُزارعًا ماهرًا؛ أغرس البذور في الأرض في همة ونشاط.

- وهل ترى التفاصيل نفسها يوميًّا؟

بُوغت "عمر" بالسؤال، وكأنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل، فعقد حاجبية وهو يفكر في عمق ثم يقول:

- قد يختلف نوع البذور كما قد تختلف الكمية التي أغرسها، وفي كل مرة أنا أؤدي مهمتي المقدسة في رضا وفخر.

بدا على "عمر" التردد قبل أن يحسم أمره ويسأل في حذر:

- أنت تختبرني، أليس ذلك؟ هل أمرك الأسياد بذلك؟ أتظنني ضعيف الإيمان؟

ابتسم "خالد" رغما عنه وهو يقول في سرعة:

- لا لا، ليس الأمر كذلك.

زفر "عمر" في قوة وقد غمره شعور بالارتياح، لكنه ما لبث أن التفت إلى "خالد" وهو يقول بغته:

- لم يبقَ إلا أمر واحد إذا، هل إيمانك ضعيف بمدى قدسية المهام الملقاة على عاتقك؟

نظر إليه "خالد" وقد أفزعه السؤال، ثم أجاب بعد تفكير لم يطل بسؤال:

- ولماذا تظن بي ذلك؟

- لا أدري، فأنت تسأل أسئلة كثيرة تعبر عن ضعف الإيمان.. احذر؛ فأنا أسمع حكايات عن رجال عصوا وجاهروا برفضهم لمهامهم المقدسة فناموا ولم يستيقظوا بعدها أبدا.. غرقوا في غيبوبة قد

تدوم مع أحدهم لشهور، ومع آخر ربما لسنوات، وأحيانًا لا يستيقظون منها أبدا.

ساد الصمت بعد تحذير "عمر" حتى وصلوا إلى مكان نومهم.

تطورت الزمالة بينهما تدريجيا حتى صارت صداقة، يقضيان معظم الوقت معًا، وقد لاحظ "خالد" أن عمر يحب الثرثرة عن أحلام الآخرين، فكلما جلسا بمفردهما يحدثه "عمر" عن أحدهم قائلا:

- هذا "عماد" يرى نفسه في الحلم يخدم عمالقة يقول عنهم إنهم الأسياد أنفسهم، وهذا "كامل" يرى نفسه نسرا يصطاد القوارض، وهذا...

لم يدرك "عمر" مدى الدهشة التي كانت تصيب "خالد" مع كل حلم يرويه له عن أحد الأشخاص الآخرين، ذلك لأن "خالد" كان يعرف معظم تلك الأحلام جميعًا، ليس لأنه سمعهم من آخرين، ولكن لأنه حلم بهم من قبل، ولذلك كان يبتسم وهو يستمع إلى "عمر" في محاولة منه أن يداري ما يدور في عقله.

ذات مرة بعد أن روى له "عمر" حلم أحدهم نظر إلى "خالد" في دهشة، وكأنه قد تذكر شيئا ما، ثم قال:

- أنت لم تخبرني عن حلمك!

- أرى.. وكأني.. وكأني أجامع امرأة جميلة.

خرجت الكلمات مبعثرة مقطعة من فم "خالد"، لكن "عمر" أومأ برأسه في تفهم، وخرج منه ذلك الصوت الذي يوحي بأنه عليم ببواطن الأمور:

- إذا فقد اختارتك الأسياد للمتعة والترفيه عنها.

وفي أحد الأيام وبعد انتهاء ساعات العمل المعتادة، فوجئ "خالد" بـ"عمر" يجري ناحيته وهو يقول في حماس:

- أخبار جديدة، لقد أذن لنا الأسياد بالذهاب إلى كهوفنا ورؤية ذوينا.

- وكم المدة؟

- سبعة أيام.

بذل "خالد" مجهودًا كبيرًا ليخفي مشاعر الفرحة بداخله، خصوصا وهو يري البعض يبكي وآخرين يصرخون قائلين:

- أسيادنا، لا نريد فراقكم.

*****

ترجل "خالد" من العربة حين وصلت إلى الكهف، وعندما اطمأن إلى مغادرتها، نزع قناع الغشاوة، وبدلا من أن يسجد للتمثال جرى في لهفة إلى الداخل؛ ليرى أمه.

عرفــت الأم أن ابنهــا قــد عــاد بعــد أن ســمعت صــوت العربــة، فوقفت فــي لهفــة تنتظــر رؤيتــه، لــم يغطــي شــعور السـعادة الـذي غمـر قلبهـا آثـار التعـب الـذي بـدا عليهـا واضـحا، عـرف أنهـا كانـت مريضــة بمجـرد أن رأى وجههـا، فنظـر إليهـا والحـزن يطـل من عينيه قبل أن يقول:

- سامحيني يا أمي، لم أكن موجودًا بجوارك في مرضك.

ابتسمت ابتسامة حانية وهي تقول بصوت بدا عليه الإعياء:

- لا عليك يا بني، فهو تكليفك وقدرك الذي اختاره لك الأسياد.

كان "خالد" يأكل في نهم لكنه توقف فجأة عندما لاحظ أن أمه لا تأكل معه بدورها، فرفع رأسه ينظر إليها وعرف السبب؛ لقد نست أمه أمر الطعام تماما وهي تطلع إليه، وبمجرد أن لاحظت تطلعه إليها تنحنحت ثم ابتسمت له وهي تقول في سرور:

- هلا جلست بجواري.

قام على الفور وتوجه إلى أمه ثم جلس بجوارها، فسألته:

- ماذا بك؟ إنك تبدو مختلفا، كأنك تحمل فوق ظهرك هموم الدنيا كلها.

لقد أصابت الأم بيت القصيد، حيث تجهم وجهه ثم ردد خلفها بصوت خاوٍ:

- مختلفا!

- أنت لا ترى نفسك، إنك تتحدث من غير إحساس، و تتحدث وكأنك لم تنم منذ أيام، أو ربما أنك ما زلت نائما بالفعل.

ثم صمتت لحظات قبل أن تستطرد في ارتباك:

- لا أدري يا بني، أنا لا أستطيع التعبير عما أريد أن أقول، لكنك حزين.

صمت "خالد" بعد كلام أمه وشعر بمرارة في حلقه، ثم حسم أمره وقال بصوت حزين:

- هل أنا عاصٍ أو ملعون يا أمي؟

انتفض جسدها وهي تستمع إليه قبل أن تتمالك نفسها وتهتف بصوت عالٍ:

- لا لا، لا تقل مثل ذلك الكلام مرة أخرى.

ساد الصمت بعدها، وقلب الأم يخفق في قوة، وحين هدأ أخيرا سألته في شفقة:

- لماذا تقول هذا الكلام؟

دفن وجهه بين يديه ثم انفجر في البكاء وهو يقول بصوت متقطع:

- ليس لي حلم واحد مثل الباقين، إن أحلامي تتغير باستمرار، حتى القوانين تغيرت في نفس يوم تكليفي.

ثم رفع عينيه إلى أمه وهو يضيف:

- أنا لا أشعر بالسعادة في العمل نهارًا أو في أحلامي ليلا.

ثم عاد وأجهش بالبكاء وهو يدفن وجهه بين يديه مرة أخرى، دمعت عينا الأم وهي تقول بصوت بالكاد خرج من فمها:

- كهف المعرفة.

لم يبدُ له أنه سمعها فرفع وجهه وهو ينظر إليها من بين دموعه ويقول:

- ماذا تقولين؟

- كهف المعرفة يا "خالد".

- وماذا يكون هذا الكهف؟

قالت في صوت يحمل يقينا عميقًا:

- هو المكان الذي يذهب الناس إليه كي يتوسلوا إلى الأسياد ليخبروهم ما بهم من علل، وما يجب عليهم فعله ليُشفوا من أمراضهم ويتحسن حالهم.

هدأت نفس "خالد" قليلًا بعد أن سمع كلام أمه ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول في حذر:

- وهل هذا الأمر مجرب؟

فقالت الأم في سرعة:

- طبعا يا بني، اذهب الآن إلى غرفتك لترتاح، وسوف آخذك إليه في الصباح.

ثم نظرت إليه في سرعة وكأنها قد تذكرت أمرا ما فسألته:

- ما مدة الإجازة؟

أجابها وهو يتوجه إلى غرفته دون أن يلتفت إليها:

- سبعة أيام.

*****

عندما فتح "خالد" صندوق ملابسه أصابته الدهشة لمرأى نور يخرج منه، فتش الصندوق بحثا عن مصدر ذلك النور فوجد المخطوطة التي ربطها له جده حول صدره من قبل، لقد نسي أمرها تماما، بل نسي أمر جده نفسه وكلامه كله.

أخرج المخطوطة ذات الكلمات المضيئة من الصندوق، وهو يشعر بالحنين إلى رؤية جده، حاول الهروب من ذكرياته فأسرع يعيد

المخطوطة لمخبأها، وبعد أن وضعها في الصندوق وأبعد يده عنها فوجئ بنور الكلام ينطفئ، فأسرع يمد يده داخل الصندوق مرة أخرى ويخرج المخطوطة ليعود النور من جديد.. تذكر كلام جده بلا مقدمات، وكأنه يراه بعين الماضي يخبره ألا ينزعها عن صدره أبدًا، ومن دون أن يشعر وضع المخطوطة على صدره، ثم فوجئ بها وقد ازداد نورها والتصقت بصدره تمامًا، وانعقدت الأربطة على ظهره من تلقاء نفسها.

لم تطل دهشته، فبمجرد أن استلقى على الفراش نام من فوره حتى قبل أن تصل الساعة إلى الثامنة.

يسير في أرض خضراء، فرأى مرة أخرى الرجل الذي يشع منه النور يقف وسط زرع أخضر، بدا له كأنه جزء لا يتجزأ من المنظر العام، يقف مبتسما تلك الابتسامة الصافية التي رآها في حلمه الأول لتبعث الراحة في نفسه، كان يتكئ على عصا عجيبة تغطيها النقوش من كل مكان، تشبه إلى حد ما المخروط، حيث كانت عريضة المقبض إذا ما قورن مع طرفها السفلي.

تكلم الرجل بصوت هادئ عميق:

- أقبِلْ يا "خالد".

لم يملك إلا الطاعة، وعندما اقترب منه مد الرجل يده الأخرى بإبريق أبيض لامع، وقال بنفس الهدوء وهو يميل الإبريق:

- اغسل يديك...

صب الرجل الماء من الإبريق فغسل "خالد" يديه، ثم أكمل الرجل بنفس الهدوء:

- مضمض فاك ثلاثًا واشرب ثلاثًا.

بعد أن فعل "خالد" ما طلب منه، أخذه الرجل من يده، وسار به بين الزرع.

يطيعه "خالد"، وهو لا يدري لماذا يفعل ذلك، أو ما هي الخطوة القادمة! ثم توقف الرجل أمام بئر ما، ماؤها صافٍ جميل، وطلب منه أن ينزل إلى البئر ويغتسل، نفذ دون نقاش، وعندما خرج فوجئ بالرجل قد اختفى وترك عصاه على الأرض حيث كان يقف منذ قليل، تردد "خالد" كثيرا لكنه حسم أمره، وانحني يأخذ العصى.

استيقظ من نومه قبل ميعاد استيقاظ المكلفين في الصباح، فخرج من غرفته ليجد أمه وقد جهزت له الإفطار، جلس معها يتناولان الطعام، وبدا له كأنها قد شفيت من مرضها فسرَّه ذلك كثيرًا، وبعد الإفطار، نظرت إليه وهي تقول:

- سوف آخذك إلى هذا الكهف اليوم.

- لا عليك يا أمي، سأذهب وحدي.

حاولت أن تثنيه عن رأيه دون جدوى، لقد عقد العزم على الذهاب وحده بالفعل، وفي النهاية رضخت إلى رأيه، لكنها بعد فترة من الصمت، نظرت إليه وقالت في صرامة مباغتة:

- عندما تكون هناك يجب عليك أن تتبع القواعد، ستجد أمام الكهف خمسة تماثيل، يجب عليك أن تركع لهم جميعًا، وبعدها تضم يديك وترفعهما أمام وجهك وأنت تنظر إلى الأرض، ثم تسألهم في توسل أن يخبروك ماذا بك وماذا عليك أن تفعل، وإن قبلوا توسلك فستسمع صوتا من داخل الكهف يخبرك بما يجب عليك فعله...

ثم وصفت له الطريق وذهب، كان الكهف كما وصفته تمامًا، خمسة تماثيل للأسياد عرفها خالد من أحلامه؛ أسد ونمر وثعبان وعجل وكلب، وعلى جانب الكهف يوجد طاقة الصغيرة، ولا يوجد مدخل.

وقف أمام التماثيل، وحين هم بالركوع، تسمر في مكانه وكلام جده يدوي في أذنه "لا تسجد لتمثال أبدًا"، فلم يركع، واكتفى بضم يديه أمام وجهه وهو يقول هامسا مترددا:

- أخبروني؛ ما بي؟ وما هي علتي؟ وماذا عليَّ أن أفعل؟

رفع عينيه ينظر إلى طاقة الكهف في انتظار أن يسمع الجواب، فخرجت منها ورقة تتهادى، اندهش حين رآها، وعندما مد يده ليأخذها فوجئ بها تحترق أمام عينيه من تلقاء نفسها، وتناثر رمادها على

الأرض بينما يقف الوقفة نفسها ذاهلا، فبدا وكأنما عدد التماثيل قد ازداد واحدًا، ثم دوى صوت صارخ يشبه النقر المتتالي آمرا:

- اقتلوه.

قبل أن ينتهي الصوت من إعطاء الأمر دبت الحياة في التماثيل وتحركت تنفذ الأمر.

أيقن "خالد" أنه هالك لا محالة، فقد علم بقدرات تلك التماثيل من خلال أحلامه، ويعرف ما تستطيع فعله.. بينما تتوجه التماثيل نحوه في بطء وثقة وغريزة القتل تطل من أعينها وتشل حركته تمامًا، ظهر فجأة جواد أبيض بجناحين وقرن طويل في منتصف رأسه هبط أمامه، ثم انحنى، ففهم "خالد" ما عليه فعله، لم يضيع لحظة، وقفز يعتلي ظهره، ليصهل الجواد صهله قوية طويلة ثم يطير بعيدًا.

تشبث "خالد" بشعر الجواد الطويل المنسدل على رقبته، وهو يحلق على ارتفاع كبير حتى أنه كان يشعر بالدوار في كل مرة ينظر فيها إلى الأسفل، ومع مرور الوقت، أحس بالهدوء الذي ما لبث أن تحول إلى شعور بالأمان، ودون أن يدري وجد نفسه يفرد يديه، وهو يطلق تلك الصيحات العالية الفرحة.

كان الجواد يطير في اتجاه معين وكأنه يعرف ما عليه فعله، وبعد فترة من التحليق هبط به في نفس المكان الذي كان الجد يدربه فيه بالسيف، ترجل "خالد" من على ظهر الجواد غير مصدق ما يراه،

ثم سار ببطء ناحية الرجل وقد تيقن أنه هو نفسه، ثم صاح بفرحة عارمة:

- جدي! أين كنت؟ لقد اشتقت إليك.

لاحظ "خالد" أن الجمود يعلو وجه جده، وحين نظر في عينيه وجدهما تتجاوزانه وتنظران بعيدًا وكأنه لا يراه، فقال "خالد" في ألم:

- ماذا بك؟

تحركت عينا الجد ببطء ناحيته، فانتبه إلى وجوده أمامه، ليبتسم وهو يقول بصوت ما زال يغلب عليه الشرود:

- بني، لقد اشتقت إليك.

احتضنه "خالد" وهو يلقى برأسه على صدره ويقول:

- وأنا أيضا اشتقت إليك كثيرا.

ركب الاثنان على ظهر الجواد الذي طار بهما إلى كهف "خالد" ثم هبط أمامه مباشرة، وكأنه يعرف طريقه جيدا، قفز "خالد" من على ظهره، ثم ساعد جده على النزول، وأسرع إلى داخل الكهف وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أمي، أمي.

- ماذا هناك؟

- أريدك أن تأتي معي إلى خارج الكهف، تنتظرك مفاجأة في الخارج.. هيا أسرعي أرجوك.

تبعته الأم إلى الخارج مسرعة، وحين خرجت وجدته يضرب كفا بكف وهو يتلفت يمينًا ويسارًا ثم ينظر إلى السماء في حيرة، فسألته في دهشة:

- ماذا هناك؟ وأين المفاجأة؟

نظر إليها في حيرة ولم يجب، لقد اختفى جده والجواد معا، ثم لفت نظره عصا رجل النور ملقاة على الأرض، فانحنى من فوره يلتقطها، تأملها عن قرب فوجدها بنفس التفاصيل التي رآها في حلمه، بالإضافة لكتاب ملقى بالقرب منها.

* * * *

(٣)

لن أعيش حياتي غارقا في الأحلام ... سأتجاوز الحدود وأحطم الجدران

عندما ذهب "خالد" إلى فراشه في تلك الليلة كان عقله يئن من كثرة ما يحمل من الأسئلة التي لا يجد لها إجابة، كيف تحركت تلك التماثيل؟ ولماذا علا ذلك الصوت يأمر بقتله؟ بل من صاحب هذا الصوت؟ هل هم الأسياد؟

لم يستطع منع تلك الابتسامة التي تسللت إلى شفتيه عندما تذكر الجواد الطائر، وبمجرد أن تذكر جده اعتصر قلبه الألم؛ لقد كان شارد الذهن تماما ويبدو عليه الوهن والمرض، غادر صوت أفكاره حدود عقله رغما عنه عندما تحركت شفتاه وهو يقول: "ولكن أين ذهب؟" وهنا تذكر أمر الكتاب والعصا اللذين وضعهما بجواره على الفراش، تطلع للعصا قليلا، ثم أمسك الكتاب فلفت نظره العنوان، ردده في دهشة:

- كتاب الحكمة (فيه حكم كل شيء)

فتحه وفغر فاه عن آخره ذلك لأن الكتاب كان فارغا، لم يجد فيه كلمة أخرى بخلاف العنوان، حاول جاهدا أن يجد تفسيرا لذلك، لكن النعاس هاجمه بلا مقدمات، فنام.

ظن أنه يشاهد صورة مما حدث معه نهارًا من منظور شخص ثان؛ عندما رأى نفسه يمتطي ظهر الجواد الطائر، ثم انتبه إلى ذلك الأمر العجيب، لقد كان هناك نسختان منه، "خالد" و"خالد"، نسخة

تقف على الأرض، والأخرى تمتطي الجواد، وكلتا النسختين تجذب الأخرى.

وقف مشدوها يراقب المشهد الغريب، ثم وجد نفسه يرتفع عن الأرض رغمًا عنه، وهو يطير في الهواء صوب الجواد، ثم انطبقت النسختان معا، ليصبحا واحدًا، ثم طار به الجواد بعيدا، يشق السماء، حتى هبط على نفس الأرض الخضراء التي رآها في حلمه، بجانب رجل النور الذي يجلس على الأرض وهو يحمل في يده كتاب ما، خمَّن على الفور أنه الكتاب نفسه.

ترجل عن صهوة الجواد، ثم جلس بجوار الرجل الذي نظر إليه ثم تحركت يده لتفتح الكتاب، فأخبره "خالد" أن الكتاب لا يحتوي على أية كلمات، ابتسم الرجل دون أن يعلق ثم فتح الكتاب، كان بالفعل مجرد صفحات بيضاء خالية من الكلام، لكن ما أثار اهتمام "خالد"، وجعله يعقد حاجبيه ليس أن الرجل أغمض عينيه، ولكن ما حدث بعدها، فقد بدأت صفحات الكتاب تتحرك بسرعة ومن تلقاء نفسها، ثم فتح الرجل عينيه، فهدأ الكتاب.

عقد "خالد" حاجبيه أكثر وأكثر حين بدأت الحروف تظهر زرقاء بلون السماء نهارًا وهي تشكل كلمات وسطورا، في البداية لم يفهم منها شيئًا؛ فقد كانت مكتوبة بلغة غريبة، وهنا وضع الرجل

إحدى يديه على قلب خالد والأخرى على رأسه، وعندما أزاحهما بعيدا عنه قال بصوته الهادئ العميق وابتسامته الصافية تعلو وجهه:

- اقرأ، يا "خالد".

أراد أن يقول له إنه لا يفقه هذه اللغة، لكنه وجد نفسه ينظر إلى الكتاب ويقرأ:

{لم ينسَ الجن أنهم كانوا أسياد الأرض حتى جاء الإنسان وأخذ منهم البنيان، فمكثوا هناك في الظلام، يتحينون الفرصة لينقضوا ويستعيدوا الملك منه، يساعدهم على ذلك الشيطان...

عندما تكثر معاصي الإنس وتنتشر الكراهية والحسد بينهم، لدرجة استعانة أحد الإنس بالجن في عمل الأسحار لأخيه، وحين يكفر الإنسان ويتبع الشيطان، سوف يجتمع كل سحرة الجان ليصنعوا سحر شطر النفس وتمزيق الروح...

في البداية سيحيى الإنسان بجسده ونصف نفسه وروحه المدبرة في النهار، وفي الليل سيحيى بما يختارونه له من أجزاء روحه ونصف نفسه الأخرى مع روح الخيال، يختارونهم بحسب هواهم ورغباتهم وشهواتهم...

ستنقلب الآية، ويسخر الجان الإنسان، ثم بالتدريج سوف يحدث الاستحواذ التام، ويسود الظلام ويختفي الإنسان إلا عبيد الشيطان}

بعد أن توقف اختفى الكلام، وأُغلق الكتاب من تلقاء نفسه، فارتبك "خالد"، إذ لم يكن يتوقع أيَّ شيء مما قرأه، هو في الحقيقة لا يعرف ما الجان، وما الشيطان، فتذكر ذلك الشكل المخيف الذي استحالت إليه تلك المرأة في حلمه، أهو شكلهم الحقيقي؟! ولكن ما هي أجزاء الروح وما النفس؟

فتح الرجل الكتاب مرة أخرى وظهرت الكلمات، وبدأ "خالد" القراءة:

{إن العقل هو ذات الإنسان وجوهره، يخرج منه صلة مباشرة إلى القلب، والقلب هنا ليس القلب الذي ينبض في الجسد، ولكنه جوهر النفس، والقلب يحتوي على الفؤاد واللب، أما اللب فهو خلاصة الفطرة السليمة النقية، وهو محل الضمير، والفؤاد وعاء الأشجان والأحاسيس والمشاعر، وهو محل الهوى، وبخلط الفؤاد واللب معًا يتكون القلب، وبمدى تأثر القلب بمكنونات العقل تتكون النفس}

نظر "خالد" إلى الرجل نظرة تعجب وهو يقول في خضوع:

- لم أفهم شيئًا مما قرأت.

فتكلم الرجل، وحين بدأ الكلام ظهرت أمام "خالد" صورا حية تحكي الأحداث:

- إن الجـن أو مـن تسـمونهم الآن بالأسـياد قـد وجـدوا علـى الأرض قبـل خلـق الإنسـان، كـانوا يحكمـون الأرض، ويفعلـون مـا يشـاؤون فيهـا، حتـى توقفـوا عـن عبـادة الإلـه الـذي خلقهـم، ثـم أخـذوا يعصـونه، وبـدأ الظلـم ينتشـر فـي ربـوع الأرض، كمـا انتشـر القتـل والترويع، فكـان القوي منهم يظلم ويقتل الضـعيف، وبمـرور السنين، اتضح للجن أنفسهم أنهم ليسوا أهلًا لخلافة الأرض، وهنـا خلق الإلـه الإنسان في هيئة مختلفة عن الجـان، وأوكل لـه مهمـة الخلافـة وإعمـار الأرض، وزال مُلك الجان عن الأرض وانحصر، ليبدأ مُلك الإنسـان، وعـاش الإنسـان يتخـبط بـين الخيـر والشـر وبـين الظلمـة والنـور، لكـن الجان لم ينسَ أن الإنسان اغتصب منه مُلكه كما كان يحلو لبعضـهم أن يرددوا، فمكثوا هنـاك يتحينـون الفرصـة حتـى يستعيدوا مُلكهم، ثـم بدأ الكـره والحسـد بـين الإنـس ينتشـر، كانـت اللحظـة الفارقـة حـين تمنـى إنسان ما أن يستحوذ على ما بيد أخيه حتى لو فعل أيَّ شـيء فـي سـبيل ذلـك، فوسـوس الشـيطان - العـدو الأول للبشـر - لهـذا الإنسـان وعلمـه كيـف يسـحر أخـاه ويضـره، وانتشـر السـحر وكـان الجـان خدامـه، وبالتدريج عاد الجان إلى الأرض وشعور الرضـا يغمـرهم حـين أوكـل الإنسـان إليهم الخـدمات، لكنهم أبدا لـم ينسـوا أنهـم كـانوا الملـوك علـى الأرض، وحين عم السحر الأرض وانتشر وكثر استعانة الإنسان بهم، زاد سلطانهم حتى ملكوا الأرض مرة أخرى، وأغرقوها في الظلمـات، واستعبدوا الإنسان نفسه.

لم يشعر "خالد" بدموعه وهي تسيل على خديه، وهو يرى كيف كان الإنسان وكيف أصبح وكيف هوى، كيف كان السيد بالحب والخير وكيف أمسى عبدًا ذليلًا خائفا، بكى وهو يرى مدى كره الشيطان للإنسان، ويرى مدى كره معظم الجان للإنسان.

أخرجه رجل النور من أفكاره، وهو يمد يده ويمسح له دموعه ويقول:

- أمامك مهمة جليلة، يا "خالد".

ووضع يديه مرة أخرى على صدره ورأسه وهو يقول:

- أنت الآن تعرف لغة الجان.

اختفى الرجل وصوته ما زال يتردد عاليا، حتى أن "خالد" كان يسمعه يأتي قويًّا من كل اتجاه:

- يجب عليك أن تتجاوز الحدود، وتحطم الجدران؛ لترى ما وراء أحلامك.

وصهل الجواد بصوت قوي، فقفز "خالد" يعتلي ظهره، ثم ألقِيَ إلى "خالد" بسيف فالتقطه في الهواء وهو لا يرى من ألقاه إليه، نفس السيف الذي أعطاه له جده.

طار الجواد بعيدا بسرعة كبيرة، فبدا كأنه يطير في العدم، فأخذ قلب "خالد" يخفق في قوة وهو يشعر بذلك الضغط

القـوي علـى صـدره، وكأنمـا هنـاك قـوة كبيـرة تعتصـره، وفجـأة دخـل بـه الجـواد نفقًـا مظلمًـا، فشـعر كـأن روحـه تسـحب منـه، وكـان علـى وشـك أن يستسـلم لغيبوبـة قويـة تهـاجم عقلـه وتشـل إرادتـه، لكنـه لمـح ضـوءًا فـي نهايـة النفـق، ثـم دوى صـوت الرجـل مـرة أخرى قويًّا وهو يقول:

- انقذْ أمك يا "خالد".

وكانت هي كلمة السر، حيث دبت الحياة في جسده وانتعش عقله، وقاوم أكثر، وفجأة هدأ كل شيء، ليجد نفسه يسبح في فراغ يحيط به نور خافت مما يبعث على الشعور بالراحة.

التفت "خالد" إلى يمينه فوجد الجواد الأبيض مغمض العينين وجناحيه يتدليان وهو يسبح إلى جاوراه في الفراغ، كان كل شيء يوحي بأن الجواد قد مات، لكنه حرك أحد جناحيه فجأة، ثم فتح عينيه وصهل وبدأ يتحرك، وطار تحت قدمي "خالد"، حتى أصبح "خالد" يمتطي ظهره بالفعل، وعاد ينطلق.

ثم توقف الجواد في الهواء بجوار نافذة كبيرة مسدسة، أطل "خالد" برأسه وهو يتطلع إلى ما بداخلها، فاصطدم بصره بذلك المشهد العجيب، حيث رأى امرأة عملاقة ترتدي ثوبًا شبه عارٍ لها شعر طويل، وتمسك بامرأة أخرى تكبرها سنا من رقبتها، وترفعها عن الأرض بيد واحدة، فبدت قزمة.

هاج "خالد" وجن جنونه، عندما أدرك أن المرأة الأخرى أمه، فقفز يعبر النافذة إلى الداخل ثم جرى في سرعة، ودفع تلك العملاقة بمنتهى القوة، فوجئت العملاقة بتلك الدفعة فاختل توازنها ووقعت على الأرض، واندهشت الأم التي وقعت على ظهرها عندما أفلتتها يد العملاقة، وهي تنظر إليه بذهول غير مصدقة أنه هنا معها.

تقدم "خالد" منها وهو يمد يده ليساعدها على النهوض، لكنه فوجئ بها تدفعه بعيدًا لتتلقى هي تلك الضربة الغادرة بدلًا منه، فينغرس طرف الخنجر الذي همت العملاقة أن تقتله به في كتف الأم.. صرخت من شدة الألم خصوصًا حين نزعته المرأة من كتفها في غلظة، وقبل أن تغرزه في جسد الأم مرة أخرى، صده خالد بسيفه.

نظرت إليه نظرة بعثت الرعب في أوصاله، وأطلقت ضحكة ساخرة، ثم اتجهت إلى الحائط خلفها، وأخذت ذلك السيف الكبير المعلق عليه وهي تطوح به يمينًا ويسارًا في سرعة ومهارة، جرت الأم ناحيتها تتوسل إليها أن تعفو عن ابنها وتتركه يرحل، لكن تلك العملاقة دفعتها في قوة، فوقعت على الأرض وتدحرجت حتى اصطدمت بالحائط، وقبل أن يبدي "خالد" أية ردة فعل، فوجئ بها تطلق صرخة عالية، وهي تنقض عليه في محاولة منها لتغرس سيفها في قلبه.

صـدَّ سـيفها بسـهولة وأزاحـه جانبًـا مسـتخدمًا سـيفه، اندهشـت العملاقة واندهش "خالد" نفسه، خصوصًا مع تلك القوة التي سرت في بدنه، كانت معركة حامية أظهر فيها كلا الخصمين قوته ومهارته في استخدام السيف، وبعد فترة من القتال، استطاع "خالد" أن يطيح بسيفها، ثم دفعها فوقعت أرضًا، كان في استطاعته قتلها بسهولة، لكنه بدلًا من ذلك تركها، والتفت ناحية أمه وهو يقول في لهفة:

- أمي!

جرى ناحيتها، وانحنى يمد لها يده ليساعدها على النهوض، لكنه رأى الخوف يطل من عينَيْها وهي تنظر خلفه، فهم "خالد" واستدار بسيفه وكانت الضربة قوية حتى أنها أطاحت بيد العملاقة الممسكة بالسيف وفصلتها عن جسدها، مما جعلها تطلق صوتا الشبيه بمواء القطط والذي عرفه "خالد" من أحلامه، وهنا أمسكت بالخنجر مستخدمة اليد الأخرى، وأشهرته عاليًا وهي تندفع ناحيته، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقفز عاليا ويفصل رأسها عن جسدها بضربة سيف واحدة.

استيقظ "خالد" من نومه وهو يلهث وجسده ينتفض في قوة، لكنه لم ينتظره ليهدأ بل قام وغادر حجرته يترنح، متجهًا ناحية غرفة أمه، دخل الغرفة وهو ينادي عليها في لهفة، لكنها لم تجِبه، ولم يجد لها أثرا.

فنادى بأعلى صوته:

- أمي أمي.

دوت تلك الضحكة الساخرة تصم الآذان، فجرى "خالد" خارج الكهف، وتسمر في مكانه ليس لأنه تأكد أن مصدر الضحكة هو التمثال خارج الكهف، ولكن لأن ذلك التمثال قد دبت فيه الحياة وبدأ يتحرك.. وقف مشدوها وهو يقرأ ما كتب على قاعدة ذلك التمثال بلغة الأسياد (سيد النار) ولسبب ما لم يستغرب ما قرأ.

أنزل (سيد النار) يده التي تخفي وجهه فبدا وجهه واضحًا وفزع الجميع، ليس فقط "خالد" بل جميع سكان الكهوف الذين خرجوا ليروا ما يحدث، كان الدم يسيل من عيني سيد النار، ومن فمه تسيل النار، أصلع، ويخرج من جبهته قرنان طويلان، كل منهما يلتف في مسار حلزوني لأعلى.

تحدث سيد النار بصوت يشبه الفحيح، وهو يوجه كلامه إلى "خالد" ويقول:

- أظننت أن معركتي معك قد انتهت؟

- هي لم تبدأ من الأساس.

كان الجميع ينظر إليهما في رعب يمتزج بالدهشة حين علا ذلك الصوت وهو يقول:

- العصا والسيف، يا بني.

ظهر الجد فجأة وهو يقذف بالعصا والسيف إلى "خالد" فالتقطهما الأخير بسرعة، والجد يقول بصوت مضطرب وهو يوجه كلامه إلى الناس:

- فليتبعني الجميع إلى الأرض المنخفضة.

وفعلا بدأ الجميع في السير خلفه حين أطلق عليهم (سيد النار) من فمه نارًا كثيفة ليقتلهم، لكن "خالد" اندفع ناحيته شاهرًا سيفه، فأخرج (سيد النار) سيفه من تحت ردائه وهو يرمقه في كره واضح، والتحم السيفان وبدا كأن الجبل على وشك أن ينهار، بل يُدك دكًّا.

كان "خالد" وسيد النار يقتتلان، والناس تحاول الفرار خلف الجد، فألقى (سيد النار) بعصاه التي تشبه الصولجان، فتحولت إلى تنين يشبه ثعبانًا ضخما له زوجين من أرجل السحالي، وله جناحان كالخفافيش، طار بهما من فوره وهو ينفث النار من خلفهم، ثم ظهر الجواد، فجرى "خالد" ناحيته وقفز عاليا يمتطي ظهره.

طار الجواد خلف التنين غير مبال بالنيران التي تنتشر هنا وهناك، وكاد "خالد" أن يغمد سيفه في أعلى رأسه لكن التنين انتبه إليه ولطمه برأسه لطمة قوية اقتلعته من على ظهر الجواد وألقته في الهواء، كان "خالد" يسقط في انتظار أن يصطدم بالأرض، لكن الجواد طار تحته والتقطه ثم طار به بعيدًا.

امتطى سيد النار ظهر التنين وطار به يلاحق "خالد".. وصل الجواد إلى الأرض الممهدة فتبعه التنين. وبمجرد أن حطَّا على الأرض استعاد التنين هيئة العصا مرة أخرى، فقفز "خالد" من على صهوة الجواد إلى الأرض وهجم على سيد النار والتقى السيفان.. كانا يكيلان الضرب لبعضهما البعض حين وصل الجد ومن خلفه الناس إلى الأمان، وبدأ الجميع يشاهدون القتال بينهما.

"خالد" يكر ويفر في خفة وقوة أدهشت الناس، بل إنها أدهشت (سيد النار) نفسه حتى أنه قد يئس من قتله فرمى العصا مرة أخرى لتتحول إلى التنين، الذي قذف من فمه النار فيما يشبه الدائرة حول الناس، كما صنع دائرة نار أخرى حول "خالد" نفسه.

تسمر "خالد" في مكانه كما تسمر الجمع المحاصر بالنيران، حاول الجواد أن يخترق النار وينقذ "خالد" لكنه لم يستطِع. وعبثًا حاول "خالد" الخروج منها فلم يقدر، وبدا أن (سيد النار) قد انتصر فعلًا، فعلا صوته وهو يقول بلهجة قوية آمرة:

- اسجدوا لي، أيها العبيد.

ثم قهقه عاليًا بصوت يشبه الأجراس، وهنا سمع "خالد" صوت رجل النور يدوي من حوله قويًّا واثقا وهو يقول:

- لماذا لم تلقِ عصاك؟

انتبه "خالد" إلى أنه ما زال يمسك بالعصى فألقاها بكل ما أوتي من قوة خلف النار، وبينما سيد النار يضحك بصوته الغريب، وقد بدأ بعض الناس فعلًا في السجود له، ظهر ذلك التنين الآخر، تنين رمادي كبير، ومع ظهوره توقف سيد النار عن الضحك وساد الصمت فجأة إلا من صوت رفرفة جناحي التنين وهما يضربان الهواء في قوة، ثم فتح فمه فخاف الناس أن ينفث عليهم النار هو الآخر، لكن بدلًا من ذلك خرج من فمه هواء أبيض بارد أطفأ النيران من حولهم، ثم نفَثَه في وجه تنين الثعبان، فتحول إلى تمثال من الثلج.. توجه الجواد إلى تمثال التنين الثلجي وضربه بقرنه فنفذ منه، وتحطم لتتناثر بقاياه على الأرض.

كان الجميع ينظر في انبهار إلى ما يحدث بما فيهم سيد النار نفسه، فاستغل "خالد" الفرصة ورفع سيفه وألقاه في قوة وسرعة، انطلق السيف بسرعة عالية حتى أنه عندما انغرس في صدر سيد النار نفذ من ظهره، ليقع على الأرض وهو يتلوى من الألم، ثم بدأ يذوب ويتحول إلى نار سائلة نفث فيها التنين الرمادي الثلج فانطفأت تمامًا.

بموت سيد النار خبت عين النار فلم تظهر عاليًا من خلف الجبال كما كان يحدث، ونظر "خالد" إلى التنين ففهم وطار بعيدًا وأخذ ينفس الثلج بداخل النار حتى انطفأت العين نفسها، وهنا حدث أمر عجيب، فقد زال الضباب وأشرقت الأرض بالنور، وارتفعت

الشمس عالية في كبد السماء، وعاد التنين إلى يد "خالد" وهو يأخذ شكل العصى مرة أخرى.

انحنى "خالد" على الأرض والتقط سيفه وهو يلهث من فرط الحماس، لكن ذلك لم يمنعه من أن يشرح للناس ما حدث، وما قرأه في كتاب الحكمة الذي فيه حِكَم كل شيء، يخبرهم عن الجان والشيطان، ثم علا صوته وهو يقول:

- لا تسجدوا للتماثيل، ولا تعبدوا الجن، ولا الشيطان، ولكن اعبدوا الإله الخالق الواحد.

وارتفع صوته عاليا حتى سمعه الجميع ملء الآذان وهو يقول:

- نعبد الإله الخالق وحده.

فرددوا جميعا خلفه في صوت واحد:

- نعبد الإله الخالق وحده.

كان "خالد" ينظر إليهم وهو يبتسم ابتسامة رضا عندما علا صوت جده وهو يقول:

- أمك يا "خالد"، ما زالت بين يدي عمالقة الجان.

قفز "خالد" فوق ظهر الجواد، وهو يطلب منه أن يأخذه إلى حيث توجد أمه، ولكن هذه المرة لن تكون في حلم.. طار الجواد بعيدًا بسرعة كبيرة، ثم أخذت السرعة تزداد وتزداد، ودوت تلك الفرقعة

عالية، ثم وجد "خالد" نفسه فجأة يقف هناك حيث ترك أمه وبجوارها جثة العملاقة، لكن المشهد اختلف في هذه المرة، لقد كان هناك عدد من خدام الأسياد يحيطون بأمه وأحدهم يقول:

- استسلم الآن، وإلا قتلناها على الفور.

ومد يده بسيف كبير ووضعه نصله على عنقها، وهنا قال "خالد":

- أستسلم ولكن بشرط واحد...

ونظر إلى أمه نظرة عطف وهو يكمل:

- أن تطلقوا سراحها وتعيدوها إلى مكانها على الفور.

ألقى "خالد" بسيفه على الأرض، ورفع يده خلف رأسه واستسلم لهم، فكل ما كان يهمه أن يتركوا أمه؛ لذلك لم يلقِ لهم بالًا وهم يقيدون يديه خلف ظهره، ولا وهم يسوقونه إلى الأسفل حيث كانت تنتظرهم تلك العربة الغريبة الشكل، وبينما يركب في العربة سمع بعضهم يتهامس بأنه سوف يذهب إلى السجن حيث تلتقي الأرض بالسماء ولم يفهم معنى الكلام ولم يهتم.

* * * *

الجزء الثاني
كتاب البشارة

(١)

أين العدل وظلم يقهر نفسي ... بين السماء والأرض أسري

وجد "خالد" نفسه يقف وسط بهو فسيح يحيط بـه ضباب خفيف من كل جانب، وكأنه انتقل من مكانه إلى هذا المكان في لمح البصر، انتقل في المكان والزمان إلى ما يبدو لـه كدور علوي في أحد الأبنية التي لم يرى مثلها من قبل، ومن مكانه استطاع أن يرى عبر نافذة البهو حديقة أشجارها ذات أوراق وألوان عجيبة.

وقف ينظر مشدوهًا إلى الأشياء التي يراها لأول مرة في حياته، ثم انتبه إلى ما يحمله في يده، ومع بريقه بدا له واضحًا وهو يرفعه أمام وجهه، سيف قصير عريض عليه كتابات ونقوش بلغة غريبة، يقطر من طرفه سائل أحمر، ويسقط على الأرضية الزرقاء اللامعة، لينتشر بغزارة، وجد بعض الدماء متناثرة على جدران الغرفة المبنية بصخور بيضاء مصقولة.

عاد بوجهه يتطلع إلى الدماء على الأرض فاصطدم بصره بجسد مقطوع الرأس، ملقى على الأرض تحت قدميه، وينقصه يده اليمنى، دار بعينيه في أرجاء المكان وهو يبحث عن الرأس، رأى في البداية يد الجثة تقبض بأصابعها على مقبض سيف كبير يتناسب مع ضخامة جسدها، وأخيرا وجد الرأس يقبع وحيدًا في زاوية الحجرة، اقترب من الرأس الخالي من الملامح يتطلع إليه في حذر.

ثم انتبه إلى صوت نحيب امرأة، التفت بوجهه صوب مصدره، فرأى امرأة جالسة على الأرض في الركن الآخر من

البهو، لم تساعده الإضاءة الشاحبة على تبينها، بالإضافة أنها كانت تدفن وجهها بين يديها وتبكي بشدة.. ثم هم أن يتحرك في اتجاهها، لكنه توقف فجأة عندما سمع صوتا حادا يقول في صرامة:

- استسلم.. استسلم الآن وإلا قتلناها أمام عينيك.

أبعدت المرأة يديها عن وجهها وهي تنظر في خوف إليهم، ثم نظرت إلى "خالد"، ومع بكائها ونحيبها خرج صوتها ضعيف وهي تقول:

- لا تستمع إليهم يا بني، اهرب بسرعة، اهرب قبل أن يقبضوا عليك.

التفت "خالد" إليها وعرفها، وهي تنظر إليه نظرة تقطر بالحب الممتزج بالخوف، لم يبد أنه يبالي بما سمعه من تهديدات وهو يتطلع إليها ويبتسم ابتسامة حانية، وفي ثقة لا تتناسب مع الموقف ألقى سيفه أرضًا، ورفع يديه عاليًا.

استسلم لهم ولم يعترض على أي شيء حتى وهم يكبلون يديه بالحبال، ولا وهم يقتادونه إلى أسفل البيت، ولا وهم يدخلونه العربة التي كانت في انتظارهم، عربة يجرها ثلاثة من الجياد، يجلس سائقها على سطحها من الخارج، والعربة من الداخل تتسع لستة ركاب، حيث كان هناك خمسة من خدام

الأسـياد، جلـس "خالـد" بيـنهم مكبـل اليـدين، وقبـل أن تنطلـق العربـة، سـمع أمـه وهـي تطـل مـن النافـذة وتقـول بصـوت يكـاد يمطر دموعًا من شدة الحزن:

- عدني يا "خالد"، عدني أنك سوف تعود إلى مرة أخرى.. عدني يا بني، أنك سوف تعود أفضل مما كنت.

لكن العربة كانت قد انطلقت بالفعل، فلم يسمع "خالد" الجزء الأخير من كلام أمه، كما لم تسمع هي صوته وهو يقول في قوة وحزم:

- أعدك، يا أمي، أني سوف أعود إليك.

*****

أخرجه من شروده ضحكة ساخرة أطلقها أحد الخمسة والذي يجلس قبالته في العربة، وهو ينظر إليه في سخرية، فبادل "خالد" نظرته بنظرة تحد، ثم ما لبث أن عاد إلى شروده وهو يستعيد الأحداث في رأسه مرة أخرى: منذ أن رأى في حلمه المرأة العملاقة وهي تحمل أمه عاليا بيد واحدة، ثم قتاله معها حتى فصل رأسها عن جسدها، ثم صراعه مع سيد النار قبل أن يعود وهو مستيقظ في هذه المرة ليحرر أمه، لكن عندما وصل إليها وجد خدام الأسياد يحيطون بها.

مـرت الـدقائق بـبطء داخـل العربـة، والصـمت يغلفهـا إلا مـن صـوت حـوافر الجيـاد وهـي تـدب الأرض فـي الخـارج، إلـى أن قطـع الصمت وقال في سخرية:

- سـوف نـذهب إلـى القضـاء، أليس كـذلك؟ هـم يملكـون قضـاة ونظام للعدل!

نظر الجميع إليه في دهشة وهو يكمل كلامه في سخرية أكثر:

- لا بدَّ لهم أن يعرفوا الحقيقة قبل الحكم علي.

صـمت لحظـات قبـل أن يضـيف فجـأة وبصـوت جـاد ملـيء بالتحدي:

- أم هم يعرفونها بالفعل؟

وهنا نظر إليه أحدهم في تشفٍّ وهو يقول في برود:

- سوف تذهب إلى السجن مباشرة.

عرفه "خالد" من صوته، نفس الخادم الذي كـان يطلـب منـه أن يسلم نفسه من البداية، فرد بنفس سخريته:

- كيف أذهب إلى السجن مباشرة من دون محاكمـة؟ أين عدل الأسياد؟

ثم همَّ بالنهوض فجأة وهو يحاول مباغتتهم ليقفز من العربة.. كاد أن ينجح وقد فتح باب العربة بالفعل، إلا أن الحارس الذي يجلس يساره تمسك به في قوة، ثم أعانه زميله الآخر على جذبه قبل أن يخضعاه تماما، أجلساه في قسوة مرة أخرى، فقرب الجالس أمامه وجهه منه وهو يقول في صرامة:

- اجلس في مكانك دون حراك، ولا أريد أن أسمع صوت أنفاسك حتى نصل.

علا صوت الرجل وهو يكمل في حزم واضح:

- أسمعت؟.. أجب؛ أسمعت؟

نظر إليه "خالد" نظرة خاوية طويلة ولم يتكلم، لقد كان يحاول أن يستجمع أفكاره لعله يجد إجابة للسؤال الذي يلح على عقله: كيف بدأ هذا كله؟ بل كيف أصبح في هذا الوضع بعد كل ما مر به؟.. لم يبدُ على الرجل أي اهتمام بما قد يفكر فيه "خالد"، ولم يتفوه بأي كلمة أخرى، فكل ما يهمه الصمت، وقد كان.

انتبه "خالد" للطريق، فعقد حاجبيه وهو ينظر عبر النافذة إلى ذلك الجزء الممتد أمامه؛ لقد بدا خطيرا جدا، حيث يلتف حلزونيا حول نفسه صعودًا إلى قمة جبل عال، وكلما صعدوا كلما ضاق الطريق، حتى شعر أن العربة ستسقط عن الحافة عاجلا أو آجلا، لكن بمرور الوقت تلاشى قلقه، إذ بدا أن الجياد تعرف طريقها جيدا.

غربت الشمس وما زالت العربة تصعد، فشعر "خالد" أنه في سجن حراسه الصمت وجدرانه الظلام، لكنه سجن لن يطول، لا يعلم أي شيء عن السجن الحقيقي الذي ينتظره، ولا يعرف مكانه، مما جعله يشعر بالضيق.. أراد أن يصرخ أو يقول أي شيء، لكن عندما رفع رأسه اصطدمت عيناه بنظرة قاسية من خادم الأسياد الجالس أمامه، مما أصابه بالإحباط فلم يقوَ صوته على مغادرة فمه، فأغلق عينيه، ثم هجم على رأسه ذلك السؤال مرة أخرى، وإن كان بصورة أقوى هذه المرة، فظل يطرق عقله في إلحاح؛ لتفتح له الذكريات وتعرض مخيلته مشاهد مما حدث، لعله يجد الإجابة التي تهدأ حاله: كيف بدأ هذا كله؟ وما السبيل لكي يتخلص من هذا الوضع؟ وبينما هو غارق في بحر أفكاره والعربة تأخذ ذلك المنحنى ظهر السجن فجأة أمامهم.

شعر بدهشة منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصره عليه، لقد كانت السماء تنطبق عليه، حيث غاصت أسوار السجن داخل السحاب نفسه، كاد معها السجن نفسه أن يختفى عن الأعين تمامًا.

ترجل من العربة يحيط به خدام الأسياد، وبينما يقتربون من البوابة، وجد أن رأسه وصدره يسبحان داخل السحاب؛ مما جعل الرؤية ضبابية أمامه، ثم دلف عبر البوابة، وبعد دخوله أغلقها الحراس خلفه.

ظل في مكانه ينظر بنظرات حادة يحاول أن يستجمع كل قواه ليرى ما حوله، ظهر أمامه المبنى الوحيد القائم داخل الأسوار، مبنى طويل أقرب للبرج يختفي كله تقريبا وسط السحاب، وقد بُني على حافة الجبل تمامًا، ومن أمامه فناء السجن وهو عبارة عن أرض واسعة، تعج بالكثيرين، وريدا رويدا بدات عينيه ترى بعض التفاصيل وميز لونين من الملابس، خمن أن أحدهما للمساجين والآخر للحراس، شغله أمر السحاب الذي يغوص فيه رأسه والجو الضبابى من حوله عن صدمة السجن، وهو يتلفت حوله في تركيز حاد محاولا رؤية التفاصيل بصورة أوضح.

اصطدم بصره بذلك المبنى الوحيد الذي يشبه البرج العالي، وحانت منه نظرة إلى قمته ورأى ذلك الشيء في السماء الذي بدا كأنه حجاب من الثلج الأبيض الشفاف يغطي السماء كلها فوق البرج، حجاب شفاف تماما، حتى أنه كان يستطيع أن يلمح كتل وهاجة تتحرك خلفه بسرعة عالية.

لم يتذكر بالتفصيل كيف سجل دخوله إلى السجن، ولا كيف تسلم ملابسه، ولا كيف أو لماذا اختار تلك الغرفة بالذات، والتي تقع في الدور الأرضي من البرج، شغل باله أكثر أن جو الغرفة من فوق صدره كان يسبح في السحاب، لاحظ وهو يبدل ملابسه بملابس السجن أن الجدران كلها مبنيه من الأحجار القديمة، كما لاحظ وجود

بعض الفتحات غير النافذة في الجدران، خمن أن المساجين يضعون فيها ماتبقى من ملابسهم.

بدل ملابسه، ثم بدأ يتفقد المكان من حوله، رأى نافذة كبيرة، فتساءل في دهشة: كيف يتركون نافذة مفتوحة داخل الزنزانة؟ من السهل على المساجين الهرب منها، نفض الأمر عن رأسه وهو يتطلع إلى أرضية الزنزانة، التي تحتوي على فراش صغير ولا شيء آخر.

تكيفت عيناه بالتدريج مع السحاب الذي يغلف الجو، مما جعله يتبين وجود بابٍ آخر داخلي يؤدي إلى غرفة أخرى، غلبه الفضول وهو يتقدم في اتجاه ذلك الباب ليستكشف ما بداخله.. مد يده ليفتحه، لكن قلبه كاد أن يتوقف حين فتح من الاتجاه الآخر فجأة، ليخرج منه شخصان غريبا الشكل.

تراجع قليلا وهو ينظر إليهما في توتر وحذر، أحدهما طويل نحيف بصورة مبالغ فيها، يبدو على وجهه الشر، أنفه مدبب طويل، وعيناه جاحظتان وكأنهما على وشك أن تخرجا من وجهه، وشعره طويل أشعث أغبر، أما الآخر فقد كان على النقيض منه تمامًا، فهو قصير ممتلئ الجسد، له وجه طفولي، اقترب منه الطويل في بطء وتبعه القصير كظله، ثم انحني على أذن "خالد" وهمس:

- لقد سمعت أنك سوف تخرج اليوم ولن تبقى طويلا معنا.

نظر إليه "خالد" مندهشًا، ليس بسبب ما أخبره به، أو كيف نما ذلك إلى علمه، ولكن بسبب صوته الذي يشبه النقر على الجدران، وإن كان أكثر حدة وسرعة، كما أنه لاحظ أن القصير يحاكي الآخر في كل حركة وسكنة، وكأن أحدهما يكمل الآخر، أو كأنهما شخص واحد في جسدين.

صرخ عقله محذرًا إياه مما يقول ذلك الطويل، فرد عليه "خالد" قائلًا:

- هذا كلام غير صحيح، فعلى الأرجح أني سأبقى معكم هنا بعض الوقت.

وقبل أن يتكلم الطويل مرة أخرى، ظهر الجواد الأبيض يرفرف بجناحيه خارج النافذة، فشعر "خالد" بسعادة غامرة، وحين سهل الجواد فهم "خالد" ما عليه فعله، فجرى مسرعًا نحو النافذة ثم قفز خارجها بلا تردد.

بدا للاثنين أنه هالكٌ لا محالة؛ لذلك فقد أصابتهما الدهشة قبل أن يبتسما رغما عنهما، حين دخل الجواد وهو يحمل "خالد" مجال الرؤية، ثم طار به بعيدًا، و"خالد" يشعر بسعادة غامرة وهو يمتطي جواده مرة أخرى، حانت منه نظرة إلى الأسفل فهم منها لماذا تركوا النافذة مفتوحة، لقد كانت النافذة تطل على الجزء الخلفي من الجبل حيث لا ترى الأرض من شدة ارتفاع الجبل، فقط ضباب مخيف.

طـار الجـواد بسـرعة عاليـة، لـم يتبـين معهـا "خالـد" تفاصـيل الأشياء من حوله، من الواضـح أنـه قد اعتـاد علـى الأمـر، فقد أغمـض عينيه واستسلم له تماما، وهو علـى يقين مـن أن الجـواد يعرف وجهتـه حق المعرفة.

بدأ الجواد في الهبوط بسرعة عالية تجعل النـاظر إليـه يظـن أنـه سوف يصطدم بالأرض لا محالة، لكنـه هبط بسـلام، فقفز "خالـد" مـن على ظهره، وبمجرد أن لامس الأرض، غاصت قدماه فيها، نظـر إلـى أسفل فانتبه إلى أن الجواد قد هبط به فوق أرض تتكوَّن مـن حبـات ثلـج صغيرة، وعندما رفع رأسـه وجد البيـاض يغطـي الأفق حولـه إلا مـن كوخ خشبي يبدو عليه القِدَم.

تحـرك فـي بـطء، وقـدماه تغوصـان فـي الـثلج مـع كـل خطـوة يخطوها، وبصعوبة بالغة وصل إلـى الكوخ، ثم صـعد ثـلاث درجـات انتهت بيـاب خشـبي متوسـط، فتحـه بـلا تفكيـر، فقفز قلبـه فرحـا، حيـث كان الشيخ الذي يشع منـه النـور يجلـس فـي صـدارة مجلـس مـع السـبعة قصـار القامة، هم أنفسهم من رآهم في حلمه من قبل، أشار له الشيخ أن يُقبل وهو يبتسم تلك الابتسـامة الصـافية التـي تبث الرّاحـة فـي القلـب، تقدم داخل الكوخ، ثم دعاه الشيخ إلى الجلوس معهم.

جلس علـى الأرض فـي مكـان خـالٍ حيـث أشـار الشـيخ والـذي يقابله تماما، وهنا فتح الشيخ كتابًا وأخذ يقرأ منه عليهم:

- من حكمة الخالق في الخلق أن لكل شيء ظاهرٍ باطنًا يختفي داخله ويستتر به حتى لا يسهل إدراكه بمجرد النظر إليه، بل بالاجتهاد والتفكير والفهم والبحث خلف الحكمة من وجود هذا الشيء، ولكل شيء باطن ظاهرًا يدل عليه كمنهج ودليل وطريق يسير فيها الراغب إلى الوصول للغاية والحقيقة.

بدون أن يشعر، وجد "خالد" عينيه ترغرغ بالدموع حتى لمعت بها.

فتوقف الشيخ عن القراءة وهو ينظر إلى "خالد" الذي ترقرقت عيناه بالدمع دونما يشعر، فقال بصوته الهادئ العميق:

- ماذا بك؟

لم يجد "خالد" ما يقوله فاكتفى بالصمت وهو ينظر إليه بعينيه المليئتين بالدموع، فقام الشيخ واقترب منه ثم وضع يدًا على قلبه والأخرى على رأسه كما فعل من قبل حين ألقى في قلبه المعرفة بلغة الجن، حرك الشيخ شفتيه بكلمات بلا صوت، فسكن "خالد" تمامًا، وأغمض عينيه وغادر جسده، لينتقل بعقله ووعيه إلى مكان آخر، حيث وجد نفسه يقف في ظلام دامس، لا يرى فيه شيئًا حتى يده، وبينما هو تائه في تلك الظلمة فتحت طاقة فوق رأسه تسلل عبرها شعاع من النور غمر "خالد"، ووسط شعاع النور بدأ يهبط شيء ما في هدوء عجيب، واقترب منه حتى توقف أمام وجهه تمامًا، وهنا

وضحت ماهية ذلك الشيء، لقد كان كتابًا كبيرًا، مد إليه يده والتقطه، ثم قرأ عنوان الكتاب بصوت عالٍ: كتاب البشارة (فيه هدى ونور).. فتح عينيه ليجد نفسه قد يجلس بين يدي الشيخ.

سأله الشيخ في هدوء:

- ماذا رأيت؟

روى له "خالد" ما رآه بالتفاصيل، فزين وجه الشيخ ابتسامته الصافية التي زادته نورا على نوره، وقال:

- هي بشرة خير، النور يهدي التائه حين تشتد الظلمة، والهدى يكشف له ملامح الطريق حين يصل إلى المفترق ليختار الأصلح بينهم.

*****

ركب على ظهر جواده، ثم مال على أذنه هامسا:

- اذهب بي إلى حيث أجد كتاب البشارة.

انطلق الجواد يضرب بجناحيه الهواء، واستمر في طيرانه يقطع مسافات طويلة، وأخيرا هبط في مكان فسيح، سماؤه صافية، وأمامه بحر هادئ يخلب منظره الألباب، وعلى شاطئه رمال بيضاء ناعمة، هواؤه منعش يبث السعادة داخل الصدور بمجرد أن يستنشق،

وقف على شاطئ البحر يتأمل المكان، ثم جلس على الرمل في هدوء، وقد تغلغلت السكينة في نفسه، فقال:

- يا له من مكان جميل! أتمنى لو أحيا هنا إلى الأبد.

صهل الجواد بقوة، فتذكر "خالد" الهدف من مجيئه وقفز واقفا وهو يقول:

- الكتاب! ولكن أين أجده؟

ثم التفت إلى الجواد وهو يكمل كلامه ويقول:

- لماذا أتيت بي إلى هنا يا صديقي؟

صهل الجواد مرة أخرى وهو يومئ برأسه تجاه البحر، وعندما نظر "خالد" إلى البحر رأى قاربا صغيرا على شكل حرف نون، يحمل شيئًا ما ويتجه به صوب الشاطئ حيث يقف هو، وما أن لامس القارب الرمال، حتى تبين لـ"خالد" ما يحمله، إنه كتاب، التقطه بشغف، ولم يلقِ بالًا إلى القارب الذي عاد من تلقاء نفسه إلى البحر واختفى بداخله.

جلس على الأرض، وجلس بجانبه الجواد، ثم فتح الكتاب، لكنه لم يجد شيئًا مكتوبًا لا كلمات أو حتى حروف، وشيخ النور ليس موجودا معه ليظهر له الكلام كما فعل من قبل مع كتاب الحكمة.

لـم يـدر مـاذا يفعـل، لكـن الجـواد صـهل مـن جديـد، فتكـرر الأمـر تمامـا مثلمـا حـدث مـن قبـل مـع كتـاب الحكمـة، ليجـده يفـتح مـن تلقـاء نفسـه، ثـم تبـدأ الحـروف والكلمـات فـي الظهـور، ليقـرأ بصوت هادئ:

((إن الإنسـان يتكـون مـن روح وجسـد، مـن ظـاهر وبـاطن وبينهمـا الـنفس، ولكـي تتحـرر الـنفس يجـب تحريـر الجـزء الخـاص بالبـاطن والـروح، تمامـا كمـا يجـب تحريـر الجـزء الخـاص بالظـاهر والجسد.. والروح تتكون من خمسة أجزاء:

روح مسبِّح: تسبح بحمد الخـالق طـوال الوقت، وهـي النفخـة الطاهرة.

روح مدبِّر: تضمن عمل أجهزة الجسم، في المنـام والاستيقاظ من دون تدخل الإنسان.

روح عقلـيّ: تعطـي ذات الإنسـان وجـوهره الحيـاة فتـؤثر فـي القلب لتتكون النفس.

روح حيواني: تعطي الحواسَ الخمس الماديةَ.

روح الخيـال: تجعـل الإنسـان ينظـر إلـى مـا وراء الظـاهر؛ ليكتشف ذاته ويرى مطلق الصواب والخطأ، فتراجع العقل في ما يبثه من أفكار، وهي ما تحيي البصيرة (عين القلب) التي ترى من ملكوت

الخـالق مـا تـرى، ويكتمـل بالمخيلـة فـي المـخ، والتـي تتـرجم مـا تـراه البصيرة إلى تصور يترجمه المخ إلى صور وكلمات.))

ثـم اختفـت الكلمـات مـرة أخـرى وأُغلـق الكتـاب، فبـدت الحيـرة على وجهه وهو يقول في انزعاج:

- ولكن كيف؟ وماذا عليَّ أن أفعل بهذه الكلمات التي لم أفقه منها شيئًا؟ لقد أبطلتُ سحر سيد النار، بل أطفأت عين النار نفسها، لكن الكتاب يقول إنه يجب أن تحرر جزء النفس الخاص بالروح والباطن.. كيف أبطل عمل السحر كله وأنهي هذا الاستعباد؟

بعد أن أنهى تساؤله، فتح الكتاب من تلقاء نفسه، كأنه يفتح ليجيب على أسئلة "خالد" نفسه، ثم خرج منه نورٌ سكن قلبه مباشرة، فشعر معه بالهدوء يسري في صدره وذلك النور يغمر قلبه، وبينما قلبه يسبح في ذلك النور، بدا له أنه يرى المعاني وقد تجسدت في خياله، والعقل يحاول جاهدا أن يترجم ما يرى الخيال إلى كلمات وصور.

صهل الجواد فجأة فأخرجه من هذه الحالة وهو يشير إليه برأسه لينظر خلفه، التفت "خالد" خلفه، فرأى بابًا ظهر من العدم يُفتح، فعاد بوجهه ينظر إلى الجواد وهو يسأله مرة أخرى: "هل عليَّ أن أدخل من هذا الباب؟"، أومأ الجواد برأسه، فقام على الفور وعبَر الباب ثم التفت يمينه.

كـان "خالـد" مستعدا لأن يـرى أي شـيء إلا ذلـك الشـيء؛ لقد فوجئ بوابـة السـجن الرئيسـية علـى بعـد خطـوات منـه، كـاد أن يعـود أدراجـه إلـى حيـث البحـر والسـماء الصـافية مـرة أخـرى، وفعـلًا خطـا خطـوة إلـى الخلـف، لكنـه لـم يجـد البـاب أو المكـان الـذي جـاء منـه، لقد اختفى كل شيء حتى الجواد.

راودتـه فكـرة أن يسـتدير جهـة اليسـار ويعـدو بكـل قوتـه لعلـه يهرب مرة أخرى، لكنه عدل عنها، فمع صـعوبتها، ومـع ذلـك الشـعور بالهدوء الـذي يغمـر نفسـه توجـه مباشـرة صـوب بـاب السـجن الرئيسـي بإرادته.

تقدم فـي هدوء وثقـة، ففتح الحـراس البوابـة وهم ينظـرون إليـه نظـرة غريبـة قبـل أن يصـطفوا علـى الجـانبين، ثـم عبرهـا إلـى داخـل ساحة السجن وسط نظرات الحراس التـي بـدت لـه واضـحة هذه المـرة برغم وجود رأسه داخل السـحاب، كـانوا ينظـرون إليـه فـي شـفقة حتـى بدا له أنهم على وشك أن يسألوه: "لماذا عدت، أيهـا الغبـي؟ فأنـت أول من يستطيع الهرب من هنا".

بمجـرد أن عبـر البوابـة أغلقـت خلفـه، سـار إلـى الفنـاء، ومـع قدرتــه علــى رؤيــة تفاصــيل أكثــر هــذه المــرة، اســتطاع ملاحظــة المساجين، مع كثـرة عددهم فـإنهم يتحركـون فـي مجموعـات منفصـلة، كل مجموعة مشغولة بما تفعله، لكنهم بمجرد وصوله تركوا كل شـيء

ووقفوا جميعًا ينظرون في هدوء إليه وهو يكمل خطواته صوب برج السجن.

سمع "خالد" أحدهم ينادي عليه، ثم تكرر الأمر ونادى عليه شخص آخر وآخر، وتعجب "خالد"؛ فكيف يعرفون اسمه؟ إذ يبدو له أنه لا يعرف أيًّا منهم، وعبر الفناء وتوجه إلى البرج حيث توجد الزنازين، وكما حدث في المرة السابقة تركوه يختار زنزانته بنفسه، فتوجه إلى الغرفة نفسها ودخلها.

استقبله الطويل بنظرته الحادة وهو يسأله في استنكار:

- لماذا عدت؟

أجاب بحذر:

- لا أعلم، أنا فقط فعلت.

صمت الطويل وضاقت عيناه وهو ينظر إلى "خالد" نظرة فاحصة، ثم ما لبث أن لانت ملامح وجهه وهو يقول:

- أنت شجاع بالفعل أيها الإنسي، فأن تعود بقدمك إلى السجن مرة أخرى، وأن تختار الزنزانة نفسها معي، هي شجاعة ولا ريب.

- وما الشجاعة في ذلك؟!

نظر الطويل إلى "خالد" وضاقت عيناه مرة أخرى، وهو يحاول أن يسبر أغواره لعله يقرأ ما يدور في عقله، ثم بعد لحظات قال:

- ألا ترى مظهري؟

رد عليه "خالد" على الفور:

- لقد تعودت أن أحكم على الأفعال وليس على الأشكال أو الأصوات.

ابتسم له الطويل ومد يده إليه وهو يقول:

- اسمي "عتيق".

ثم نظر إلى القصير وهو يستكمل:

- وهو "عتيق".. كلانا "عتيق".

- وأنا "خالد".

فوجئ "خالد" بأحدهم يخرج من الباب الداخلي للزنزانة، متوسط الطول، جسده ممتلئ قليلًا، وله شارب ولحية سوداوان، كما كان يبتسم في ود باد، قال بصوت يشبه الزقزقة وهو يقف في منتصف الغرفة:

- وأنا "راضي".

ومع أنه قد فوجئ به إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يمد يده إليه، وهو يتفرس في ملامحه، لاحظ بعدها أن "عتيق" قد بدأ يتحاشى النظر مباشرة إليه، فتوجه إليه وهو يسأله:

- ماذا بك يا "عتيق"؟

تكلم "عتيق" بصوت غلب عليه التأثر وهو يقول:

- أنت أول إنسي لم يخِفه شكلي أو تكويني ذو النصفين، كما أنك تتحدث إليَّ في ود.

قاطعه "خالد" وهو يقول:

- ها أنت تكررها للمرة الثانية، ماذا تعني بأول إنسي؟ من أنت حقا؟

- أنا من الجن.

ردد "خالد" في دهشة:

- من الجن! ولماذا سجنوك وأنت واحد منهم؟

- عندما رفضت أوامرهم قاموا بسجني، لقد رفضت أن أستمر في أذية البشر.

فقال "خالد" في حذر:

- أنا أعرف أن الجن وبمساعدة الشيطان هم من آذوا الإنسان.

هنا تكلم راضي في سرعة وبصوته الذي يشبه الزقزقة:

- لسنا جميعا مؤذين.

فهم "خالد" أن "راضي" هو الآخر من الجن، كما لاحظ عليه التوتر وهو يقوم بفرك يديه باستمرار، ويتكلم بسرعة واندفاع وهو يضيف:

- ما زال يوجد فينا الخير، كما الشر، فينا المؤمن والكافر، العالم والجاهل، نحن أشكال وألوان وطرق وعشائر وقبائل، أنا تعلمت على أيدي علماء، وبالمناسبة أنا أعرف جدك يا "خالد"، قد تبادلنا العلم من قبل، حتى أننا تعلمنا عن الكتب معًا؛ كتاب الحكمة، وكتاب البشارة، شرح لنا الصوت الكثير منهما.

كان "راضي" يتحدث بسرعة، فلم يملك "خالد" إلا أن يستمع إليه، ويحاول متابعته، لكنه لم يحتمل حين أتى على ذكر جده والكتابين، فأشار إليه بيده أن يتوقف وهو يسأله بسرعة قبل أن يعود ويتكلم:

- متى قابلت جدي؟ وما الصوت؟

- إن أبي هو من أنقذ جدك من الطوفان، وكان يعلمنا معا ونحن صغيران.. علمنا كيف نصلي للإله الخالق، ولا نسجد لغيره، وعندما

نتعبد بالصلاة أو الدعاء يأتي الصوت، فيخبرنا ويعلمنا، حتى صار يأتينا عندما نحتاجه أو نناديه، وقد علمنا عن الكتابين كثيرا، وأخبرنا أن هناك كتابًا ثالثًا سوف يأتي زمانه.

وهنا نظر "عتيق" إلى "خالد" وسأله:

- هل تريد أن تقابل الصوت؟

فأجاب "خالد" على الفور:

- نعم.

ابتسم له "عتيق" ابتسامة غامضة، وقبل أن يضيف شيئا انطلق الصوت الذي يعلن عن ميعاد النوم، فذهب "خالد" إلى فراشه لينام، لكنه فوجئ بـ"عتيق" يأتي إليه ويهمس:

- دعنا نذهب ونتحدث معه.

ثم أضاف:

- "خالد"، قبل أن نذهب أريدك أن تستمع إلى كلامه، وتنفذه بالحرف الواحد.

أومأ "خالد" برأسه، وإن لم يستطع منع نفسه فسأل في حيرة:

- من هو؟

- الصوت طبعا.

هم "خالد" أن يسأله سؤالًا آخر، لكن "عتيق" أكمل في سرعة:

- انتظر حتى تقابله، هيا لنذهب جميعا الآن.

ظهر "راضي" في هذه اللحظة من خلف "عتيق"، ثم تحركا صوب النافذة، و"خالد" يتبعهما، خرج كلا "عتيق"، ثم "راضي" من النافذة الكبيرة وتسلقا الجدران، لكن "خالد" تسمر في مكانه دون حراك. وبعد مرور لحظات عاد إليه "عتيق" وأطل برأسه من النافذة، وهو يتعلق بيده الممسكة بالجدار من الخارج، ويقول:

- لماذا لم تتبعنا؟ هيا ولا تخف.

خرج "خالد" من النافذة، وأمسك بالنتوءات والفُتحات كما يفعل رفيقاه، وتسلق الجدار خلفهما.. في البداية، كان يشعر بالخوف حتى أنه كاد أن يتعثر ويسقط أكثر من مرة، ولكنه وجد نفسه مع الوقت يتقن الصعود حتى أنه قد سبقهما في مرحلة ما، ثم وصل إلى إحدى النوافذ العالية، فسمع صوت عتيق يأتي من الأسفل يخبره أن يقفز إلى الداخل، قفز لكنه لم يجد أحدًا بالداخل، فانتظر حتى تبعه رفيقاه إلى داخل تلك الزنزانة، التفت إليهما وهو يقول في حيرة:

- إنها زنزانة خالية.

ابتسم "عتيق" وهو يقول:

- لقد أخبرتك أنك ستتحدث إليه ولم أقل أبدا بأنك ستراه، فهو صوت.

قال "راضي" في سرعة:

- نحتاجك، أيها الصوت.

سمع "خالد" صوتًا هادئًا رصينًا يشبه صوت جده كثيرًا وهو يقول دون أن يرى صاحبه:

- من أنت؟

بدت على "راضي" الدهشة وهو يقول:

- أنت تعرفني بالفعل.

- لا أسألكما ولكني أسأل صاحبكما.

نظر "عتيق" و"راضي" إلى "خالد" يحثانه على الكلام، فتنحنح وهو يقول:

- اسمي "خالد".

- لم أسأل عن اسمك، ولكن سألت عمن تكون.

لم يفهم "خالد" الهدف من السؤال، أو الفرق، فسكت ولم يجِب، فقال الصوت:

- أخبرني عن حكايتك، يا "خالد".

حين انتهى "خالد" من رواية قصته، سمع الصوت يقول:

- دعني أسألك بعض الأسئلة.. إذا أذنت لي بالطبع.

تكلم "خالد" على الفور وقد شعر معه بالألفة، وذلك الصوت يشبه صوت جده كثيرا:

- تفضل.

- هل ما كنت تراه حين تنام أحلاما أم شيئا آخر؟

- لا أعرف ولكني كنت أستيقظ منها، وما زلت أحس كل الأحاسيس نفسها التي كانت في الحلم، وأشعر بالتعب كأني بذلت مجهودًا حقيقيًّا.

- هل كان نومك أصلا نومًا؟

احتار "خالد" ولم يُجِب على الفور، فقال الصوت:

- دعنا من هذا السؤال الآن.

ثم استطرد وهو يقول:

- كم من الوقت تظن أنه مر منذ أن قبضوا عليك حتى هربت ثم عدت؟

- لا أدري ولكنه أكثر من يومين أو ثلاثة.

- وهل نمت فيهم؟

- نعم، حين عدت إلى السجن ذهبت إلى الفراش في موعد النوم، مهلًا..

قالها وهو يفكر في عمق هذه المرة قبل أن يقول:

- لقد ذهبت إلى الفراش ولكني لم أنم، بل كان يشبه انتقالًا للوعي، ثم تسلقت الجدران وتحدثت معك.

وهنا نظر "خالد" حوله فلم يرَ رفيقيه، وسمع الصوت يقول بارتياح ورضى:

- عد إلى فراشك، إن الحراس على وشك دخول زنزانتك.

فسأله "خالد" في سرعة:

- ما هذه الكائنات النورانية التي تسبح خلف حجاب الثلج؟

- هي روحانيات السماء وبعض الملائكة و...

وفجأة سمع "خالد" ذلك الصوت يدوي في أذنه ويقول:

- قم، اصحَ، تعالَ معنا.

قام في فزع، ليجد عددا من الحراس يحيطون بفراشه، فسألهم:

- إلى أين؟

- إلى العمل.

فقال وقد بدأ يفتح عينيه ويدرك الموجودات من حوله:

- وماذا سأعمل؟

- ستعمل مثل بقية المساجين، في تحضير الطعام للحراس.

وهنا فتح عينيه عن آخرهما ولاحظ الضيق الواضح على وجه ذلك الحارس وهو يخبره بأمر إعداد المساجين الطعام للحراس، لكنه لم يلقِ له بالًا وهو يذهب معهم إلى المطبخ، وعندما دلف إلى المطبخ أطلعه أحد الحراس على دوره وعمله.

غص المطبخ بالمساجين، وبالرغم من الزحام الشديد استطاع "خالد" أن يميز نصفا "عتيق" اللذين لا يفترقان أبدًا وبجوارهما يقف "راضي". اشترك "خالد" مع الجميع في إعداد الطعام، وعندما انتهوا منه ذهب به بعضهم ليضعه أمام الحراس المجتمعين حول طاولة كبيرة تسعهم جميعًا، وبعد فترة حان موعد عودة المساجين إلى غرفهم، وبينما هم يتحركون، لاحظ "خالد" أن بعضهم ينظر إليه بطريقة توحي بأنهم يعرفونه من قبل، فتذكر أولئك الذين كانوا ينادون عليه بالأمس وهو يعبر الفناء أمامهم.

الغريب حقا أن "خالد" كان ينظر إليهم وهو يشعر بداخله أنه قد قابلهم من قبل، وإن كان لا يذكر أين ولا وكيف، بعض المساجين كانوا ينظرون إليه وهم يبتسمون، بينما آخرون يرمقونه بنظرات تحمل الكراهية، فوجد نفسه يدقق في وجوه المساجين رغما عنه..

أدهشه أن البعض منهم بدا شاحبًا أو مريضًا، حتى أن هناك منهم من كان يترنح يمينا ويسارا في أثناء سيره.

أخرجه "راضي" من تركيزه وهو يأتي مسرعا ليسير بجواره ويهمس له:

- هل قابلته؟

التفت إليه "خالد" في توتر ظهر واضحا في صوته وهو يقول:

- قابلت من؟

- الصوت.

عقد "خالد" جبينه قبل أن يقول:

- ولكنك كنت معي حين قابلته، وكذلك "عتيق".

- لم أكن أبدًا معك.

انعقد لسان "خالد"، وصمت تماما، إلى أن دخلا الزنزانة، فوجدا "عتيق" وقد سبقهما إليها، فقال "راضي" في سرعة:

- لقد قابل الصوت، قلت لك إنه سيفعل.

فقاطعه "خالد" في سرعة وهو يقول في حيرة:

- لكنكما كنتما معي بالفعل.

نظر "عتيق" إليه وقد ازداد جحوظ عينيه وهو يقول:

- لم أكن معك، ربما "راضي".

- كما قلت لك سابقا. أنا لم أذهب إلى هناك.

صمت "خالد" وطال صمته قبل أن يطلق زفرة قوية وينظر إلى "راضي" وهو يسأله في استنكار:

- كيف يمكن ذلك؟!

- أنت قابلته بروح خيالك، قابلته في داخلك؛ في عالمك، هو أشبه بالحلم، لكنه حقيقة، وسوف تكون حقيقة أكثر مع الوقت.

لهث "راضي" من فرط السرعة والحماس الذي يتحدث بهما، و"خالد" يتمتم بينه وبين نفسه: "هو جزء الروح الخاص بالخيال"، وفجأة قفزت فكرة إلى رأسه فوجد نفسه يسأل في سرعة:

- ما عملك في عالمك، يا "راضي؟ وأنت يا "عتيق"؟

رد عليه "راضي" في سرعة وهو يقول:

- أنا طبيب وعالم فلك.

- وأنا ساحر.

وهنا نظر "خالد" إليه في دهشة وكذلك فعل "راضي"؛ فسأله "خالد" بصوت مبحوح والكلمات تخرج من فمه ببطء:

- ما هو السحر حقا يا "عتيق"؟

- السحر فعل يستعين فيه الساحر بنوع من علوم الشياطين؛ ليصنع أحداثًا وفق ما يريد شخص ما يستعين بهذا الساحر.

صمت "عتيق" لبرهة غير مصدق أنه قد نطق بهذا الكم من الكلام، ثم استطرد وهو يقول:

- وعلم السحر ينقسم بحسب الهدف منه في العموم إلى أربعة؛ أولا: إخضاع الأسباب والسيطرة عليها وهو التسخير بالأقسام. ثانيا: توجيه الأسباب لتقوم بأعمال معينة حسب هوى الساحر وهو الإجبار الذي تربطه العزائم. ثالثًا: منع الأسباب من القيام بعمل ما وهو الموانع وتحكمه الطلاسم. رابعًا: استبدال الأسباب بأسباب أخرى وهو التغيير الذي يحتاج إلى مفاتيح الأبواب ومغاليقها.

بدون مقدمات وجد "خالد" نفسه يفهم ما يقوله "عتيق"، بل كان يراه في مخيلته ويفهم معناه في عقله، كأنه كان يملك المفاهيم التي تنتظر التفسير لتعبر عنها الكلمات.. ذلك النور الذي خرج من كتاب البشارة وسكن قلبه أكسبه قدرات عجيبة بدأت تظهر عليه، فأصبح يستطيع أن يشعر بما يدور في داخل رأس الواقف أمامه، بل أصبح يرى قلبه وما يحتويه، ولهذا شعر بحزن "عتيق" فسأله:

- لماذا تبدو حزينًا هكذا؟

شعر "عتيق" بالدهشة لقدرة الإنسي على سبر أغواره وهو الجني، دهشة بدت واضحة في صوته وإن لم تمحُ الحزن الواضح فيه وهو يقول:

- لقد كنت سببًا في إلحاق الأذى والضر بالكثيرين.

ثم استطرد في سرعة:

- "خالد"، لا تظن أني كنت أرفض أن أقوم بأعمال السحر هذه طول الوقت، لكن المهم أنني قد تبت الآن، وفي كل وقت أسأل الخالق أن يغفر لي ويقبل توبتي.

كلما غاص "عتيق" في الكلام عن السحر بدا على صوته الحزن أكثر وأكثر، لاحظ "خالد" تبدُّل طريقة حديث "عتيق"، ولكنه كان منشغلًا بما تغير فيه هو نفسه منذ دخل قلبه ذلك النور، كان يشعر بهذا التغيير يسري في قلبه وعقله وروحه.. خرج من شروده وسأل مشفقا:

- لماذا سجنت، يا "عتيق"؟

بدا على "عتيق" الشرود وهو يقول:

- لقد جمعوا كل من رفض أعمال الأذى والسحر وزجوا بهم في السجن.

فقال "خالد" في سرعة:

- مَن هم الذين يتسببون في الضر والأذى، بل ويجمعون كل من يخالفهم ويضعوهم في السجن؟

نهض "عتيق" فجأة، وبرقت عيناه، وهو يقول:

- اسمع يا "خالد"...

هجم الخوف على صدره فجأة بمجرد أن اقترب منه "عتيق" بنصفيه؛ ذلك لأن أعينهما كانت تشتعل نارًا، ثم بدأ يشعر بارتفاع حرارة الجو في الزنزانة، لكن "راضي" أدرك الموقف، وقام في سرعة وهو يقول:

- اهدأ يا "عتيق"، واترك لي الإجابة هذه المرة.

بدأت حرارة الغرفة تنخفض تدريجيا، بمجرد أن جلس "عتيق" الذي أخذ يهدأ وهو يلتقط أنفاسه رويدا، ثم أمسك "راضي" زمام الحديث

* * * *

(٢)

الطمع في الخلافة أعماه، ظن ... أنه سيصبح في الأرض إله

وأنا صغير أخبرني والدي، أنه فيما سبق من السنين، اجتمع مجلس الجن العام ومعهم مندوب الشيطان؛ لينظروا في أمر سيادة الإنسان بعد الذي كان، فقال كبير الجان وهو يوجه كلامه إلى مندوب الشيطان:

- بسبب إبليس فقدنا ملكنا الواسع في الأرض، وانحصر إلى الخلاء، حيث أغلقت علينا البوابات بالأقفال من جراء القوانين والأحكام الواجبة النفاذ، وإلا الحرق يكون الجزاء.. لو لم يحاربنا هو لاستمر ملكنا على الأرض الآن، ولمنعنا سلطة هذا الإنسان وسيادته، لكن طمعه في الخلافة على الأرض أعماه فحاربنا و...

علا صوت مندوب الشيطان وهو يقاطعه في غضب:

- كفى!

فألجمهم جميعًا، ثم أكمل بالصوت نفسه:

- هل نسيتم، مَن يناضل ضد الإنسان طول الوقت؟ مَن يزين لهم الأمور ليجرهم إلى المعاصي والضلال؟ مَن يعلمهم السحر ويأمرهم أن يستعينوا بكم؟ مَن اكتشف كيف يبطل عمل القوانين، وفتح لكم معظم الأبواب؟ حتى كدتم أن تسخروا أنتم الإنسان.

قال كبير الجن العام في استنكار:

- إنــه الإنســان نفســه ومعاصــيه، صــفاته وأفعالــه، هــو مَــن يفــتح لنــا الأبــواب.. عنــدما يحقــد علــى أخيــه، أو يحســده ويتمنــى لنفســه مــا يملكــه، أو عنــدما يمكــر الأخ بأخيــه ليمرضــه، أو يفقــره أو يقتله.

فقال مندوب الشيطان في قوة:

- ومن الذي يوسوس له ليفعل ذلك أيها الغبي؟ مَن الذي جعل همه وشغله ليل نهار أن يضعف إيمان الإنسان؟

لهث مندوب الشيطان من فرط الحماس بعد أن قال ذلك الكلام، ثم استطرد:

- المهم أن نتحد جميعا ضد هذا المخلوق الأدنى الضعيف، لنفعل ما اجتمعنا لفعله.. فليحضر السحرة الآن.

سأل "خالد" مقاطعا سرد "راضي"، وهو يتوقع الإجابة:

- وما الذي اجتمعوا لفعله ؟

لكن ما أخبره به "راضي" فاق كل توقعاته..

- لقد أوقدوا نار الظلمات، وهي نار شديدة الحمرة، ظلها شديد السواد، أقاموا لها البناء، وألقوا فيها حطبها ووقودها، حتى بدأ ظلها الأسود يتراقص في نعومة، ثم بدأ الظل ينتشر، ويغطي مساحة أكبر،

وكلما ألقوا فيها العزائم والطلاسم والأسماء، زاد الظل المظلم انتشارًا، فيغطي من أطعموها من الأسماء.

نظر إليه "خالد" مصدوما وهو يسأله:

- وما الذي يحدث حين يغطي الظل الأسود أحدهم؟

- يتسلل الظلام داخل نفسه، ويظلم ما بها من نور، ثم يشطر نفْس هذا الإنسان.

- يشطر نفْس الإنسان إلى نصفين؛ نصف بالنهار ونصف بالليل.

نظر إليه "راضي" في دهشة ثم قال:

- تمامًا كما قلت يا "خالد"، ولكن كيف عرفت عن سحر شطر النفس؟

أجابه "خالد":

- لا يهم الآن، أكمل من فضلك ما بدأت.. ماذا بعد أن يستحوذ على النفس ويشطرها إلى نصفين؟

- بعدها أشعلوا نار الهوى، وهي نار لا تراها العين، وإن كانت تنشر البرودة في القلب والروح.

- وما الهدف منها؟

- لا أعلم، لقد أخبرتك بالفعل بكل ما أعرف.

وخيم الصمت على الجميع.

وضع "خالد" جسده على فراش السجن في تلك الليلة، لكنه لم يستطع النوم؛ وكلام "راضي" و"عتيق" يدور في رأسه.. لقد أطفأ تلك النار ذات الظل الأسود بالفعل، لكن أين مكان النار الأخرى؟ وكيف يصل إليها ويطفئها؟ لماذا يشعر بأن عليه هو بالذات أن يفعلها؟ وكأنه دوره المنوط به أن يؤديه.. زفر في قوة قبل أن يغادر صوته عقله ويعبر فمه إلى الخارج وهو يقول: "من أين أبدأ؟"

وبلا مقدمات سمع الصوت يقول:

- ماذا رأيت في المطبخ حين نزلت اليوم؟

ومع المفاجأة والقشعريرة التي سرت في جسده خرج صوته مرة أخرى وهو يسأل الصوت:

- أين كنت؟

فتح "خالد" عينيه فجأة ليجد "عتيق" ينظر إليه في دهشة وهو يقول:

- ماذا تقول يا "خالد"؟

- لا شيء.

أغمض عينيه مرة أخرى وهو يقول في همس:

- أنت تتحدث معي وأنا ما زلت مستيقظًا.

أجابه الصوت في هدوء:

- نعم، يا "خالد"، المهم الآن أن تجيب سؤالي: ماذا رأيت هناك؟

وهنا انتبه "خالد" أن الصوت يتردد داخل رأسه فقط، فجرب أن يخاطبه بعقله:

- رأيت عشوائية في إعداد الطعام مع بعض الإهمال، والنتيجة طعام رديء لا تقبله النفس، يتم وضعه على مائدة قديمة يغطيها التراب.. منظر يكاد يفسد النفس.

- هذا هو الظاهر.. أريدك أن تنظر إلى الأعماق أكثر، ما نتيجة ذلك الطعام السيء على الحراس؟

- يشعرهم بالضيق مما يزيد من سخطهم على المساجين وتتوتر بينهم العلاقات.

هنا قال الصوت في ارتياح:

- أحسنت، ولكن كيف يجهز المساجين الطعام نفسه؟

أخذ "خالد" يفكر دون أن يجيب، لقد أصابته الدهشة بالفعل؛ فهو لم يرَ نارا توقد على طعام، ولا قدورا.. لم يجد ما يجيب به، مما جعل الصوت يقول:

- هو طعام تجهزه النوايا، وتقوم بإعداده المشاعر والأحاسيس ويحسن مذاقه الذوق العام.

حمل صوته الجدية وهو يكمل:

- ابدأ بتحسين جودة الطعام، بأن تختار الحسنة نيته من المساجين ومعهم محبي الخير لغيرهم، ثم ضع في المطبخ النظام، وأحسن التقديم والعرض، يسد بينهم الوئام.

في الصباح، حين ذهب المساجين إلى المطبخ، تقدَّمهم "خالد" واستأذنهم في الكلام، وشرح لهم وجهة النظر، وكيف يمكن تحسين العلاقات بين الحراس والمساجين، ومع هباته وقدراته الجديدة، استطاع أن يقرأ ما بداخل المساجين، واختار منهم الحسنة نيتهم ومحبي الخير للآخرين، واقترح عليهم نوع الطعام، ونظَّم الأدوار وشرح لكل واحد منهم ما عليه فعله بالتمام.

خرج ونظف المائدة ونظمها، وجاء موعد الطعام، وأقبل الحراس يجلسون حول المائدة.. في البداية، استغرب الحراس مشهد الطاولة الجميل، ثم بدا عليهم السرور، وحين أتى الطعام وقدم إليهم بنظافة ونظام استساغوه حين أكلوه، ولأول مرة في هذا السجن ساد

جو من الهدوء والسرور بين المساجين والحراس.. نظر "خالد" إلى المشهد في سرور والجميع ينظر إليه في سعادة واضحة.

بلا مقدمات شعر "خالد" وكأنه يعلو ويرتفع داخل السحاب، وكأنما يطير عاليًا دون جواد، ثم بدأ يرى المشهد رؤية كلية من فوق، وتخيل في رأسه كيف يمكنه أن يطور الأمر أكثر وأكثر، سيعمل على تطوير المطبخ والطعام وأسلوب العرض، كان "خالد" يشعر بنفسه وهو يطير لكنه في الحقيقة ما يزال واقفًا على الأرض، وفجأة وجد نفسه مرة أخرى في الزنزانة، والصوت يسأله من داخل رأسه:

- والآن ماذا لاحظت على المساجين؟

- ينظرون إليَّ كأنهم يعرفونني، وأكاد أجزم أني أعرف بعضهم بدوري، وإن كنت لا أعلم كيف.

صمت بعدها طويلًا وبدا عليه الحزن واضحًا، فسأله الصوت:

- أغلبك الشوق؟

- نعم، أشتاق لرؤية أمي.

- عليك أن تخرج نفسك من السجن؛ كي تعود إليها وتراها.

فقال "خالد" في حزن:

- لكني لا أملك الأمر، فخروجي من السجن ليس بيدي.

- هو بيديك إن أردت.

- بالطبع أريد، أخبرني كيف يكون الأمر بيدي؟

- حين أطفأت نار الحمرة ذات الظلال السوداء فقد حررت جزء الملك والظاهر، ولكي تحرر الملكوت والباطن، يجب عليك أن تقضي على سحر الهوى وتطفئ ناره الخفية.

- كيف؟ كيف؟

رد عليه الصوت في هدوء:

- عندما تحب من يكرهك، وتسامح من يظلِمك سيعود الاثنان واحدًا، وعندما تساعد الجميع وتنقذ منهم من تستطيع سيكونون لك تبعًا، وعندما تنير الظلمة وتسيطر الروح المسبح منهم على باقي الخمسة سيعود الملكوت.

عقد "خالد" حاجبيه وبدا له أنه لم يفهم من كلام الصوت شيئًا، وصمت يفكر، لكن صمته طال، وكذلك طال صمت الصوت، فقال:

- أيها الصوت، أين أنت؟

ولم يجِبْه أحد.

*****

انـتفض جسـد "خالـد" وهـو يسـمع أحـدهم ينـادي اسـمه مـن الخارج، خرج من زنزانته إلى فناء السجن، ليجد ثلاثـة مساجين، تكلم أحدهم:

- اسمي "ممدوح" وهذا "عصام" وهذا "سعيد".

- وأنا اسمي..

قاطعه "عصام" وهو يقول:

- أنـت "خالـد" نحـن نعرفـك بالفعـل، أنـت مـن حسـنت جـودة الطعام ونظمت المائدة.

وهنا قال "ممدوح":

- لقد جعلت الحراس سعداء...

قطع كلامه إثر سعال أصابه فجأة، احمرَّ وجهه وضـاق نفَسُـه، ولـم يسـتطع التوقـف، فالتفـت "خالـد" حولـه يبحـث عـن "راضـي"، وبمجرد أن رآه جرى نحوه وجرَّه من يده وهو يقول:

- أسرع يا "راضي"، إنه على وشك الموت.

وقبـــل أن يســـأله "راضـــي" أي ســـؤال وجـــد "ممـــدوح" أمامـه ممـددًا علـى الأرض يسـعل فـي قـوة دون توقـف، فـرك يديـه كعادتـه، ثـم مـدهما وتحسَّـس جبهتـه قبـل أن يقفـز وهـو يحـرك يـده بعيدًا ويقول:

- إن حرارته عالية جدًا.

وتحشرج نفَسُ "ممدوح" أكثر وأكثر، وصار قاب قوسين أو أدنى من الموت، فأخذ "سعيد" يبكي وهو يرى صديقه في هذه الحال ويقول:

- يا صديقي العزيز، ليتني أستطيع أن أفعل أي شيء.

ثم تعالى صوت بكائه أكثر حين سمع "راضي" يقول:

- إنه يموت جراء ذلك الوباء الذي لا يوجد له علاج.

نظر "خالد" إليهم وفجأة توقف الزمن.. توقفت الحركة والكلام والأنفاس، ثم وجد "خالد" نفسه ينتقل إلى حيث كان يمسك بكتاب البشارة، والكتاب يخرج منه النور ويدخل قلبه ولكن ببطء في هذه المرة ليسمح لقلبه أن يعي ما يوجد بداخل النور.. فهم "خالد" واستوعب من العلوم الكثير، ثم عاد مرة أخرى مكانه وتحرك المشهد من جديد.

تحرك "خالد" ومد يده ولمس جبهة "ممدوح" وهو يتمتم بكلمات في سره، فهدأت أنفاسُ "ممدوح"، وعاد لون وجهه طبيعيًّا وتوقف السعال، ثم قام من مكانه ينظر في دهشة إلى "خالد"، كما كان الجميع يفعلون.

عاد "خالد" إلى الزنزانة غير مصدق ما حدث، كان يتساءل بينه وبين نفسه عن مصدر الثقة التي أحس بها تغمر نفسه، وذلك اليقين الذي غمر قلبه بأنه قادر بالفعل على شفائه، وبينما هو يتذكر ما كان يقوله أثناء لمس جبهة "ممدوح" سمع الصوت داخل عقله واضحًا قويًّا وهو يقول:

- ماذا تتذكر مما قرأت عن روح الخيال في كتاب البشارة؟

فاجأه السؤال لكنه حاول أن يستجمع أفكاره كعادته وهو يقول:

- هي الروح المسؤولة عن إحياء الخيال، أو بالأحرى إحياء ما يراه الخيال وإظهاره في صور يراها القلب ويفقه معناها إن استطاع، والخيال يرى ما وراء الظاهر وأحيانا يرى ما وراء النفس.

- ماذا تعني بإحياء الخيال وصوره؟ هل هي حياة مثل حياة الإنسان؟

أجاب "خالد" في سرعة:

- بالطبع لا، الحياة لها صور عديدة، وكل منها لها قوانينها وحدودها، والتي منها حياة الخيال التي لها قوانينها وحدودها الخاصة بها.

عاد الصوت يسأله وقد أثار انتباهه فهم "خالد" العميق للأمور:

- هل تعتقد أن كل ما يراه الخيال يكون في صورة أشياء جميلة وأنوار؟ أم تراه يرى الشرور والفظائع أيضا؟

فأجاب "خالد" وهو يحاول أن يزن الكلام:

- أظن أنه بحسب حال الإنسان نفسه يرى ما يرى.

اكتفى بتلك الإجابة المقتضبة وصمت، ففي الحقيقة خمن أن الصوت لا يسأله فعلًا بل يريد أن يخبره شيئًا ما، وكان تخمينه في محله، فقد تحدث الصوت، وبنبرة المعلم قال وهو يهم بشرح الأمر له:

- السحر يحتاج إلى إتمام صورتيه حتى ينفذ بالكامل، صورته المادية وصورته المعنوية، أما الصورة المادية فتحمل الأقسام والطلاسم أو العزائم التي يصنعها الساحر بغرض حدوث تأثير ما على المسحور، والأهم من ذلك لتفتح الباب لنفاذ السحر نفسه إلى نفْسِ المسحور وباطنه، ونفاذ خادم السحر إن وجد. والصورة المادية من السحر قد توضع في طعام أو شراب وقد تلقى في طريق المسحور ليسير فوقها، وعلى حسب نوع السحر والهدف منه تأتي طريقة نفاذة وعمله، وهناك أيضًا سحر لا يحتاج إلى خادم من الجان، ويكون الغرض منه ربط المسحور بشيء ما كدوران الأفلاك، أو صعود الماء وهبوطه في نهر أو بحر، أو نمو نبات أو ذبوله، أو حتى ربطه بمنازل القمر.

كان "خالد" ينظر بعيدًا عبر نافذة الزنزانة وقد بدا على وجهه الحزن غير مصدق ما قد يفعله الإنسان بأخيه الإنسان لكنه صمت تمامًا وانتبه إلى ما يقوله الصوت:

- إن السحر يتمركز في منطقة ما من الجسد كالمعدة مثلًا، ثم يحيط نفسه بوسائل الأمان التي تبقيه خفيًّا قدر المستطاع وتحميه من الخروج من الجسد حتى ولو بالصدفة، والأهم لتحميه من الأشياء المضادة للسحر نفسه كما ستفهم فيما بعد، وهنا يبدأ هذا السحر العمل على اختراق نفْسِ الإنسان؛ لكي ينفذ خادم السحر إلى خياله بغرض التحكم فيه، وبحسب قوة السحر ونوعه يكون خادمه والصور التي يتجسد فيها في خياله؛ فمثلًا السحر بغرض التخويف تظهر فيه صور وحوش وحيوانات مفترسة، والسحر الذي يجعل الإنسان يصاب بالضيق والعزلة تكون الصفات التي يطبعها الساحر على هذا الجان هي حب الوحدة ودفن الأمل بداخله والانفصال عمن حوله وهكذا.. لكن في النهاية، هذه التجسيديات كلها يتحكم فيها خيال الشخص المسحور، فهو في النهاية من يرى وهو أيضا من يترجم رؤياه، يتحكم فيها مخزونه الحقيقي من الصور والمعاني والكلمات، فقد يجبر الشخص المسحور خادم السحر هذا على التجسد في صورة ما بحسب خياله هو.

وهنا قال "خالد":

- هل تقصد أنه في مرحلة ما قد يرى المسحور صورة هذا الجان وقد تجسدت فيما يريد الساحر نفسه؟ أم يكون التجسيد في صورة هي بالفعل موجودة في خيال المسحور رآها في الواقع من قبل؟

- الصورة تتبع المخزون في الخيال، فلا يمكن أن تأتي صورة ليس لها أصل في مخيلة المسحور نفسه، وقد يحدث تركيب من عدة صور، ولكن في النهاية يجب أن تكون كلها من مخزون مخيلته نفسه.

صمت الصوت لحظات ثم قال:

- وكذلك الأنوار والروحانيات التي تساعد المسحور على مقاومة السحر، فقد تظهر له في أحلامه ومخيلته في صور جميلة وأحيانًا في صور أشخاص يعرفهم ويحبهم في الواقع، وقد تظهر بطرق تحتاج إلى التأويل والتفسير.

بينما يتفكر "خالد" فيما سمعه، أضاف الصوت بعد فترة من الصمت في جدية:

- انتبه جيدًا لما سأقوله؛ لكي تعرف مدى تأثير الخيال وروحه حقا.. إن الخيال هو من يخلق المجال حيث يلتقي العالَمان معًا، حيث يؤثر الجان على الباطن تأثيرًا معنويًّا يحمل بين جانبيه الأثر المادي، يقابله جزء السحر في الظاهر حيث يأخذ التأثير المادي ويلقي به إلى

الباطن وهو يحمل بين جانبيه الأثر المعنوي، بحيث تكون النفس بين فكي السحر.

- هل تقصد أن هذا المجال هو ما يعطي الأفعال والصور المعنوية في الباطن الفرصة لكي تتحرك خروجًا تدريجيا فيبرز تأثيرها في الظاهر، والعكس من الظاهر إلى الباطن؟

رد الصوت على "خالد" في إعجاب واضح:

- أحسنت يا "خالد"، مع الأخذ في الاعتبار أن تأثير الباطن على الظاهر يصل ضعيفًا مقارنة بقوة الأصل، وكذلك تأثير الظاهر علي الباطن.

وقبل أن يقول "خالد" أي شيء آخر عاد الصوت يكمل كلامه:

- وعلى كلٍ، للقضاء على السحر يجب القضاء على جزئيه؛ الباطن، والظاهر، كما يجب القضاء على الجزء الذي يتحكَّم فيه من الجسد والذي ينصب على طبقة ما من النفس، بالإضافة للقضاء على الجزء الذي يسيطر على روح الخيال، وقد يمتد إلى الأفكار وطبعًا ينصب على مساحة كبيرة من النفس.

كان "خالد" يستمع إلى الصوت في انتباه تام حين قفز سؤال إلى رأسه فجأة حتى أنه لم يستطع التحكم في نفسه وهو يقول:

- هل النار التي أطفأتها من قبل هي نار سحر الجسد والتي تنصب بدورها على جزء من النفس؟

- نعم، أنت أبطلت جزء السحر من الجسد، ويبقى الجزء المسيطر على النفس.. حين يعود الاثنان واحدًا سيتكون مجال من النور يحمي النفس من كل سوء.

- هل السحر في الباطن يؤثر فقط في روح الخيال؟ أم أنه قد يمتدُّ إلى أجزاء أخرى من الروح؟

أجابه الصوت:

- قد يؤثر السحر في الروح الحيواني حتى يوهم المسحور بأنه يرى أشياء غير موجودة ويسمعها...

ثم خفت الصوت وهو يكمل:

- وقد يمتد تأثيره ليطول الروح المدبر، وهنا يصيب الجسد بالأضرار ومنها الشلل أو فقدان النطق، وقد يمتد تأثيره إلى محاولة إيقاف عمل القلب والموت.

صمت الصوت حين وصل إلى هذه النقطة حتى قطع "خالد" الصمت وهو يسأله:

- ما هو الحسد؟

فأجابه الصوت:

- لا تهمـل أبـدًا النيـة فـي أي فعـل. ولا تعتقـد أن المعـاني تظـل إلـى الأبـد معـاني! كمـا أن هنـاك لأي جسـد مـا معنًـى وشـرحًا، فقـد يـأتي وقـت يتجسـد فيـه المعنـى بحيـث تكـون النيـة هـي مـن يتحكم في ذلك التجسد.

صمت الصوت لحظات قبل أن يضيف في سرعه:

- سـتعرف الكثيـر فـي حينـه، المهـم الآن أن تـتمكن مـن تحريـر الـروح والـنفس.. قـم بعملـك مـع المسـاجين مـن حولـك لتحرر نفسك.

لم يفهم "خالد" الجزء الأخير من الكلام، لكنه علم بإحساسه أن الصوت اكتفى من الكلام إلى الآن.

*****

أصـبح جميـع المسـاجين يعرفـون "خالـد"، بـل السـجن كلـه، فبعـد مـا حـدث مـن أمـر شـفائه العجيـب لـ"ممدوح" أصـبح الجميـع يتحـدثون عنـه، وعـن اسـتطاعته أن يشـفي الأمـراض كلهـا، وأنـه ينصـح بالصـواب مـن يأتيـه طلبًـا للنصـيحة، وأحبـه الجميـع ووثـق فيه.

لقد أصبح أكثر صفاءً عن ذي قبل؛ يرى الأسرار عيانا؛ يرى الباطن ظاهرًا أمامه، يرى الملكوت وهو مستيقظ، صار يرى نفسه

وهو يخترق حجاب الثلج ويرتفع بين الروحانيات والملائكة هناك، ويتحول إلى نور ويسبح معهم ويهيم.

أصبح "سعيد" و"ممدوح" و"عصام" له ملازمين، وانضم إليهم "باهر" و"شهير"، بالإضافة لصديقيه "راضي" و"عتيق"، يلازمونه وكأنهم حواريوه، يجلسون كثيرًا في فناء السجن وهم يتبادلون أطراف الحديث، وفي مرة من تلك المرات وبينما هم جالسون نظر إليهم "خالد" وقال:

- ماذا تقولون إن أخبرتكم أن الشيطان يحاول أن يسرق أرواحنا؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض دون أن يتكلم أحد منهم، إلا "شهير" قال في استنكار:

- كيف تعرف كل هذه الأمور الغريبة التي تحدثنا عنها؟!

فقال له "خالد" وقد ثبر أغواره:

- ألا تصدقني؟

ابتسم "شهير" رغمًا عنه، ثم حاول أن يخفي ما بداخله وهو يقول:

- أنا فقط أسأل وأريد أن أتعلم.

فقال "خالد":

- أخبر أحدهم صديقه بأن شخصًا ما سوف يأتي الليلة ليسرق بيته، لكن ذلك الصديق وبدلًا من أن يصدق ويأخذ الحيطة سخر وقال في نفسه: وكيف له أن يعلم؟.. وجاء السارق وسرق بيته.

صمت "خالد" يتفحص وجوههم قبل أن يستكمل كلامه ويقول:

- ماذا سيفعل حين يخبره مرة أخرى أن شخصًا ما سوف يأتي ليقتله؟ هل تراه يسخر منه ويسأله كيف له أن يعلم؟ أم سيصدقه ويأخذ حذره؟

أجاب الجميع في صوت واحد:

- سيصدقه ويأخذ حذره بالطبع.

هنا قال "خالد":

- سوف يمر بنا الآن شخص ما وحين يرانا سيضحك عاليًا، ثم سيسقط فجأة أمام أعيننا.

هم "شهير" بقول شيء ساخر، ولكن شخص ما أتى وضحك عاليًا بلا أسباب، ثم سقط وصرع أمام أعينهم، فتوجه "خالد" إلى الشاب الصريع، ثم وضع يده على رأسه، فخرج من أذنه اليسرى مخلوق أسود صغير يشبه الجرو له قرنان صغيران، لم يلبث ذلك المخلوق أن جرى مبتعدا حتى اختفي عن الأنظار.

هدأ جسد هذا الشاب ثم قام من رقاده يتلفت حوله في حيرة، قبل أن ينظر إلى "خالد" ورفاقه، ثم يبتعد بعيدًا عنهم دون أن ينبس ببنت شفةٍ، فقال "خالد" في ثبات:

- هل تصدقونني الآن حين أقول لكم إن الشيطان يريد أن يسرق أرواحكم؟

فأجاب الجميع و"شهير" معهم:

- نعم.. نعم

وبينما هم واقفون هناك قال "عتيق" وهو يتلفت حوله:

- إن السجن أصبح نظيفًا وأكثر تنظيمًا، والمساجين أنفسهم يبدون أكثر هدوء.

نظر إليه "راضي" وقال:

- إنهم يسيرون في مجموعات بحيث يشبه أعضاء كل مجموعة منهم بعضهم بعضًا.

تكلم "شهير" معقبًا على كلامه وبنبرة إعجاب واضح:

- انظر إلى هؤلاء.

وأشار إلى مجموعة من المساجين، وهو يكمل كلامه:

- أجسادهم قوية وسليمة وطلعتهم بهية.

رد عليه "عتيق" وهو يقول:

- إنهم يختالون ويتفاخرون على الآخرين.

هنا قال "خالد":

- هل من الممكن أن تدوم الشجرة راسخة ثابتة والسوس ينخر في الجذر والساق؟ إن أكل الغرور النفس، فسيسقط بناء الإنسان ولن يدوم.

صمت بعدها وشرد بذهنه بعيدا، ولم يلاحظ تلك النظرة التي رمقه بها "شهير" بطرف عينه.. كان يفكر طويلًا فيما أصابه بعد أن دخل نور الكتاب قلبه، وبينما هو غارق في تفكيره سمع صوتًا يشبه صوت جده يدوي في عقله ويقول:

- احذر من شهير.

ابتسم "خالد" رغمًا عنه وأحس فعلًا بالسعادة تغمر نفسه فقال في عقله:

- أين كنت؟ لقد اشتقت إليك أيها الصوت.

- أنا معك دائمًا لا أفارقك أبدا.

تركهم "خالد"، وذهب إلى الزنزانة ليختلي بنفسه، كما يفعل مؤخرا، جلس على طرف فراشه، فعاد الصوت يسأله:

- ماذا عرفت عن المساجين؟

- عرفت عنهم الكثير.

- وبم تشعر حين تراهم؟

فأجاب "خالد" على الفور وكأنه كان ينتظر السؤال:

- مع كل واحد منهم يأتي إحساس مختلف لا أستطيع وصفه في وقته، وكأني أختبره لأول مرة.

خمن "خالد" أن الصوت كان يبتسم وهو يقول:

- هي أفعال وذكريات ترتبط بصفات ذات.

- أفعال وذكريات ترتبط بصفات ذات!

- نعم هي كذلك، اخرج إلى فناء السجن الآن.

قام "خالد" وعبر باب الزنزانة وخرج إلى الفناء، فاجأه أن الضباب قد عاد، ومع عودته أصبحت الرؤية صعبة مرة أخرى، وبرغم ذلك استطاع أن يميز بوضوح شخصًا ما يجري ناحيته، الغريب أنه كان يرى ذلك الشخص بالذات واضحا، وما أن وصل إليه حتى احتضنه في لهفة صادقة وود واضح.

أصابت ذلك الشخص الدهشة عندما قابله "خالد" بنظرة استغراب، فقال:

- "خالد"، ألا تعرفني؟

نظر إليه في حيرة، فتكلم ذلك الشخص مرة أخرى:

- لقد كنا أعز صديقين في مرحلة الطفولة.

نظر إليه خالد "نظرة" أسف وأراد أن يقول شيئًا أي شيء، لكنه لم يمهله، وأكمل:

- لقد كنا ندرس معًا وأنت كنت تساعدني وتشرح لي ما يستعصي على فهمي.

تولدت فجأة في نفس "خالد" مشاعر لم يستطع تسميتها أو تصنيفها، فسمع الصوت في عقله يقول:

- إنها من صفة العطاء.

فتذكره "خالد"، وتذكر كل ما مرَّا به سويا، بدت له وكأنها ذكريات ومشاعر من حياة أخرى، ثم أتى شخص آخر، فقفزت إلى عقل "خالد" صورة طفل صغير يمسك بكرة في يده، يقذفها إليه في فرح واضح، ويطلب منه أن يعيدها إليه.

فقال الصوت:

- وهذا الصفاء.

وهكـذا الجميـع فـي الفنـاء، جمعـتهم بـ"خالد" أفعـال وذكريـات تعبـر عـن صـفات، لكـن الغريـب أنهـم جميعًـا بـدوا لـه وكـأنهم أحـلام أو ذكريـات مـن حيـوات أخـرى، وليسـت مـن هـذه الحيـاة، ثـم بـدأ يميـز بعـض الصـفات منهـا الكبـر والعنـاد والغـرور، ومنها الصداقة والود والرحمة.

لكن الصوت عاد يدوي في عقله محذرا وهو يقول:

- احذر من شهير ورفيقيه الخفيين، احذر من الكراهية والغل والحسد.

انقشع الضباب من حول "خالد"، الذي ما زال يقف خارج الزنزانة غارقًا في أفكاره، يحاول أن يستجمع ما قاله الصوت، ففوجئ بـ"راضي" يسرع الخطَى ناحيته قبل أن يقف أمامه ويلتقط أنفاسه ليقول:

- لا بد أن نتحدث الآن، هناك أمر جلل.

ضاقت عينا "خالد" وهو ينظر إليه والأخير يكمل كلامه:

- لا بد أن تأخذ حذرك.

- اهدأ، يا "راضي" واستجمع أفكارك، ثم أخبرني ماذا تريد أن تقول.

هدأ وأخذ نفسه ببطء وهو يقول:

- "شهير" خائن، جلس معنا واخترق صفنا، وهو الآن يحضر لتسليمك إلى بعض الحراس؛ ليفتكوا بك أو يقتلوك.. سيجعلك تستنشق مادة ما، ثم يعطيهم الإشارة، فيأتون إليك ويكبلونك.

سأله "خالد" في هدوء لا يناسب الموقف:

- وكيف علمت بهذا الأمر؟

- "عتيق" أخبرني.

- وأين "عتيق" الآن؟

- لقد سبقنا إلى الزنزانة ليجهز شيئًا ما هناك.

وبينما كانا يسيران في اتجاه الزنزانة حيث ينتظرهما "عتيق"، أخبره "راضي" بكل ما قاله له "عتيق" بالتفصيل ومن البداية.

منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصر "عتيق" على "شهير" لم يشعر ناحيته بالراحة، وقد حاول كثيرا أن يبدل هذا الشعور بداخله، أو على الأقل يتحكم فيه ويسيطر عليه، ولكن بلا جدوى، كان يخبر نفسه أنه مجرد انطباع، ربما كونه نتيجة فعل أو كلمة قام بها أو قالها "شهير" لم ترُق له، وأسست لذلك البناء من عدم الثقة بداخله، لكن الحذر بدا واضحا على صوت نصف "عتيق" الطويل وهو ينظر إلى نصفه القصير ويقول:

- تمام، كما تقول، شكله مريب وغير مستساغ، نعم.. نعم، يبدو زائفًا كأنه يرتدي قناعا.

ثمَّ هبَّ من مكانه فجأة وهو يقول:

- عرفت الآن لماذا أرتاب فيه، إنه ينظر إلى "خالد" نظرات تحمل الكراهية والحسد، هي نفس النظرات التي كانت تبدو واضحة في أعين أحدهم، عندما يقصد الساحر لعمل سحر يؤذي به شخصا.. نعم، إنها نفس النظرة التي كان يرمق "خالد" بها عندما يظن أن أحدًا لا يلمحه، لكنني رأيته ونظرته تفضحه.

غادر "عتيق" الزنزانة هذه المرة وقد قرر أن يراقب "شهير"، ولأنه من السحرة المهرة فقد كان من السهل عليه أن يخفي أحد نصفيه لفترة من الزمن، وقد كان حيث صنع ما يشبه عباءة الإخفاء.

كان "شهير" يسير بمفرده في فناء السجن، حين قابل تلك الجماعة من الفتية ذوي الأجساد القوية والطلعة البهية مرة أخرى، حياهم ثم ما لبث أن انضم إليهم، وهم يتحدثون عن "خالد" ومدى تسامحه وطيبة قلبه.

فقال أحدهم:

- "خالد" طيب القلب فعلًا، لقد أخطأت من قبل في حقه لكنه سامحني.

سأله آخر:

- كيف هذا؟ احكِ لنا.

- هل تذكر حين كان يسير بجوارنا فسخرت من منظره ونادیته بالبغيض؟

- نعم، أذكر لقد التفتَ إليك وابتسم في ود واضح، حتى أنه اقترب منا وحيّانا جميعا، ثم عرف نفسه إلينا قبل أن يطلب أن يتحدث معك على انفراد، لكنك لم تخبرنا أبدًا ماذا دار بينكما في ذلك الوقت.

- عندما طلب مني أن نتحدث على انفراد ترددت في القبول، لكن شيئًا ما في نظرته جعلني ألبي طلبه، تحركت معه حتى أخذنا جانبًا، ثم نظر إلي وابتسامة الود ما زالت على وجهه وهو يقول يا أخي، هل تعرف عني شيئا؟. قلت له: لا. فقال: فلمَ تسخر إذًا مني؟. شعرت بالإحراج منه ونظرت إليه ولم أجِبْه. فعاد يقول: إن جميع المخلوقات تحوي ما يكفي من الجمال بطريقة أو بأخرى وإن لم ترَه الأعين، كما أن الجميع فيه من القبح الكثير وإن لم ترَه الأعين. قد أراك جميلًا من الخارج، لكنك قبيح من داخلك، وقد تراني قبيحًا من الخارج وبداخلي الجمال.

ساد الصمت لحظات قبل أن يضيف الشاب:

- الغريب أنه مالَ على أذني وأخبرني بذلك الأمر القبيح الذي أفعله، ولا يعلمه أحد عنّي؛ فأنا لم أطلع عليه أي أحد من قبل، وبعد ذلك أخبرني أنه يسامحني، ثم تركني وذهب لحل سبيله، فلم أسخر من أحد بعدها أبدًا.

تدخل "شهير" في الكلام وقال في سرعة:

- إن "خالد" يدعي الأخلاق والفضيلة، لكنه في الحقيقة يكرهكم ويحسدكم لأنكم أقوى منه وأجمل.

صمت لحظات أخذ الجميع فيها يتلفتون إلى بعضهم البعض، ثم تابع:

- لقد كنت أجلس معه حين مررتم من أمامنا، فقال عنكم أنكم مغرورون وقبيحون.

ومن مكانه الخفي كان نصف "عتيق" القصير يقف مرتديا عباءته وهو يستمع إلى ذلك الحوار، وحين عاد والتقى بنصفه الطويل نظر إليه وكأنه يقول: "أرأيت؟" فأومأ له الطويل برأسه، ومنذ اللحظة ونصف "عتيق" القصير يراقب "شهير" كظله.

أي نعم حين ينفصل النصفان يشعر كل منهما بالضعف والهوان، وأي نعم هما لم ينفصلا من قبل، لكنهما كانا يحبان "خالد"

كثيرًا، ومستعدان أن يفعلا أي شيء لحمايته والذود عنه، وفي النهاية فإن النصفين سيظلان قريبين من، فهما ما يزالان داخل حدود السجن.

وفي مرة من المرات وبينما نصف "عتيق" يراقب "شهير"، وجده يتسلل خلسة خارج زنزانته بعد أن علا الصوت يعلن وقت نوم المساجين، ظن أنه سوف يخرج متجهًا إلى الفناء في الخارج، لذلك أصابته الدهشة عندما رآه يقابل أحد الحراس خارج الزنزانة، ثم اقتاده الحارس عبر الممر إلى نهاية المبنى، فتبعهما، وحين اقترب منهما فوجئ بالحارس يلمس حجرًا في الحائط، فانفتح في هذا الحائط بابٌ، ثم التفت الحارس إلى "شهير" وهو يقول:

- لا تتأخر كثيرًا هذه المرة، ولا تجعل أي أحد يراك.

قال له "شهير" في هدوء:

- اطمئن.

ثم عبَر الباب، وبينما "شهير" يهبط درجات ذلك السلم الذي ظهر خلف الباب، كان عتيق ومن طرف خفي يتبعه.

أحصى "عتيق" وهو يهبط خلف "شهير" ما يقرب من سبعة طوابق تحت أرض السجن، وفي النهاية ومع انتهاء السلم، بدأ يسير في خط مستقيم في اتجاه ما، يؤدي لزنزانة وحيدة في آخر الرواق، وقف "شهير" في احترام أمام قضبان هذه الزنزانة، ثم سمع "عتيق"

صوت يشبه الزمجرة يأتي من داخل القضبان، وإن لم ير صاحبه الذي يقول بحشرجة واضحة:

- ما الأخبار؟

قال "شهير" في خوف باد:

- أنا أعمل بكل طاقتي، أفعل كل ما أستطيع لأجعل المساجين يكرهون "خالد".

بدت زمجرة ذلك الصوت واضحة وهو يقول:

- وهل كرهوه؟

تردد "شهير" وبدا ذلك في صوته واضحا، وهو يتكلم في تلعثم ويقول:

- إنه يقوم معهم بأعمال غريبة تشبه السحر، فهو يشفي المرضى ويطمئن الخائف.. إنه يزرع بين الجميع الحُب حتى أن الحراس والمساجين أصبحوا على وفاق بسببه.

صاح الصوت في قوة جعلت "شهير" يركع على قدميه من شدة الخوف وهو يقول:

- أنت فاشل! لا بد أن تسرع أكثر وتضغط عليه، لماذا لا تستعمل تلك المواد التي أعطيتها لك؟ كيف لا تستطيع أن تثقل صدره

عندما تقترب منه؟ كيف لا تستطيع أن تجعله يفقد تركيزه؟ كيف لا تستطيع أن تجعله يفقد الرغبة في العمل والنجاح؟

فأجاب "شهير" في سرعة:

- أنا أفعل ما بوسعي.

فقاطعه ذلك الصوت:

- لقد خاطرت بإدخالك إلى السجن، وأعطيتك تلك الهيئة حتى تستطيع الاقتراب منه وإضعافه.

سال زبد من فمه وهو يقول:

- لقد استملت من الحراس الكثيرين بالفعل، واقتربت من الوصول إلى مفتاح سجني.

بعد لحظات من التردد وبلع ريق، قال "شهير" بتلعثم:

- لكن كيف تمكنوا من أسرك وسجنك وأنت...

لم يكمل تساءله إذ زمجر السجين قائلا:

- لم يأسرني أحد، أنا من غيرت شكلي، ودخلت إلى هنا بقدمي؛ وهو ما أضعف من قوتي.

وقبل أن يسأله شهير لماذا؟ أضاف هو بصوت قوي:

- وإلا ما كان في استطاعتي أن أدخلك أنت وأمثالك إلى هنا.

كان "عتيق" يستمع إليهما في دهشة، وشعور بالخطر القريب يتنامى بداخله، نفض تلك الفكرة التي تلح عليه بأنه يعرف صاحب ذلك الصوت، وتمتم في نفسه: "لا يمكن لا يمكن" وعندما تحرك صاحب الصوت ودخل في مجال الرؤية، انتفض جسد "عتيق" وهو يتمتم في نفسه:

- إنه هو، إنه الذئب الأسود، مندوب الشيطان الذي بدأ كل هذا مع سحرة الجان.

وشعر بالخوف الحقيقي على "خالد" ومندوب الشيطان يقول:

- لابد أن نضرب بسرعة وقوة، خذ هذه المادة لتنثرها على وجهه عندما يكون بمفرده في الزنزانة، ويجب عليك أن تتأكد من أنه قد استنشقها.

سأله "شهير" في لهفة:

- ماذا سيحدث له عندما يستنشقها؟

أجابه الذئب وهو يبتسم تلك الابتسامة الماكرة:

- سيحل عليه الظلام.

صمت الذئب فجأة وقد شعر بوجود أحدهم فقال في سرعة:

- اذهب الآن، ولا تدع أحدهم يراك خصوصًا "عتيق".

شعر نصف "عتيق" بالوهن مع طول المدة التي قضاها بعيدًا عن نصفه الآخر، ومع ذلك فقد كان يصعد الدرج عدوا، واصل عدوه دون رحة حتى دخل الزنزانة وقابل نصفه الطويل وأخبره بكل ما حدث، ثم روى "عتيق" بدوره لـ"راضي" كل ذلك.

* * * *

(٣)

بالنور والرحمة يُمحى الظلم والظلمة ... والصفات يصارع بعضها بعضا

وصـل "خالـد" و"راضـي" إلـى الزنزانـة وعنـدما دخـلا كـان نصـفا "عتيـق" منهمكين فـي تحضـير شـيء مـا، حتـى أنهمـا لـم يلتفتـا إليهما، فقال "خالد" في صوت عالٍ:

- ماذا تصنعان يا "عتيق"؟

- أجهّز سحرًا سيصيب "شهير" هذا بما لا يحتمل.

قاطعه "خالد" قائلا:

- هون على نفسك ولا تفعل.

تسمر كلا "عتيق" في جلسته لحظات، لكن أطولهما هب واقفا فجأة وهو يقول في دهشة:

- لا أفعل! كيف تطلب منـي ألا أفعل؟ سوف ألقن هذا الخـائن درسًا لن ينساه أبدا.

قاطعه "خالد" مرة أخرى وهو يقول في هدوء:

- لـن نـرد السيئة بالسيئة، لـن أبـادل كرهـه بكـره، بـل بالتسـامح والحب.

نظر إليه "عتيق" ولم يدرِ ماذا يقول، فقال "راضي" فجأة:

- دعنـــي إذًا أجهـــز شـــيئا آخـــر، ســـيمنع تـــأثير مادتـــه تلـــك عليك.

نظـر إليـه "خالـد" وهـز رأسـه علامـة الرضـا. بعـد أن ذهـب "راضـي" ومعه "عتيق" ليحضرا المواد اللازمة لصناعة ذلك الشيء دلف "شهير" إلى الزنزانة، وهو يتلفت حوله في اضطراب واضح ثم قال في حذر:

- هل أنت بمفردك؟

أومـأ "خالـد" برأسـه قبـل أن يقـول بـبطء وهـو يضـغط علـى الحروف:

- يمكن لرفيقيك الظهور.

ثم أكمل:

- إني أراهما بالفعل.

أصـابت الدهشـة "شـهير" وهـو ينظـر إلـى "خالـد" الـذي قـال كلامه وهو يقف في ثبات، ثم بدأ يتموج في فراغ الزنزانة جسدان هلاميان ظهرا من العدم، ثم رويدًا رويدًا أخذا يتشكَّلان ويتجسدان. كانا صورتين طبق الأصل من "شهير"، نثر الأخير تلك المادة في سرعة على وجه "خالد"، ولكن قبل أن تصله حدث ذلك الشيء مرة أخرى، لقد توقف الزمن.

تسـمر الثلاثـة، أمـام "خالـد" حتـى بـدا لـه أنهـم يشـبهون التماثيـل تمامـا، وفجـأة رآه يطيـر فـي السـماء ويتجـه صـوب نافـذة

الزنزانـة. ابتسـم "خالـد" وهـو يـري الجـواد يقـف فـي الهـواء أمـام النافـذة، وفـي اللحظـة المناسـبة قفـز مـن النافـذة والتقطـه الجـواد وطار به بعيدًا.

غمـر قلبـه وصـدره فـيض مـن السـعادة الممزوجـة بالحريـة؛ والجـواد يحلـق بـه عاليـا، أعقبهمـا إحسـاس بخفـة الـوزن، كأنـه أصـبح روحا بلا جسد، وهبط الجواد على الثلج، بجوار الكوخ.. صعد "خالد" الدرجات مسرعًا، ثم فتح الباب في لهفة ورأى الشيخ يجلس في المكان نفسه وبالطريقة نفسها، لكنه يجلس بمفرده هذه المرة.

ابتسم الشيخ له ابتسامة الصفاء والحب ذاتها وقال:

- أقبل.

جلس "خالد" فـي المكـان نفسـه الـذي جلس فيـه سـابقا، والشـيخ يقول:

- الآن، يـا "خالـد"، هـو الوقـت الأهـم.. مـاذا قـرأت مـن كتـاب الحكمة؟

أجابه في تركيز وهدوء:

- بـدت لـي الكلمـات والسـطور تتحـدث عـن الشـيطان والجـان وتـدابيرهم ومكـرهم لإخضـاع الإنسـان، والسـيطرة عليـه، واسـتعباده؛ لينسـى الخـالق ويعبـدهم هـم، وقـرأت أيضًـا عـن السـحر وتـأثيره علـى

الأبدان، وأيضًا الحديث الكثير عن الأرض والجبال والبحار وكيفية بداية الخلق.

هز الشيخ رأسه وهو يسأله مرة أخرى:

- وماذا قرأت من كتاب البشارة؟

- قرأت عن تركيب روح الإنسان ونفسه، وعن الصفات وعلاقاتها بالنفس، كما قرأت عن الشيطان وكيف يؤثر في هذه الصفات، وأيضًا عن تأثير السحر عليهم، والظلمة والنور.

- وماذا فهمت من كتاب البشارة؟

صمت "خالد" قليلا وهو يستجمع أفكاره قبل أن يقول:

- فهمت أن العقل يحوي ذات الإنسان ومكنوناته، أحياه الخالق على الصورة التي نعرفها حين نفخ فيه الروح، وعند التقاء الروح بالجسد تتكون النفس، وللنفس جوهر يسمى القلب يحتوي بداخله على اللب والفؤاد؛ اللب كأنه الفطرة السليمة حين تزكيها تأتي بالتقوى، والفؤاد هو وعاء المشاعر والأحاسيس والهوى حين يتملكك يكون فيها الميل والفجور، وبحسب إرادة العقل ومحتواه يتكون القلب بين فجوره وتقواه، وتظهر للعين الصفات التي يمكن أن تراها في أفعال الإنسان وتسمعها في أقواله.

نظر إليه الشيخ نظرة تملؤها الفخر، فتذكر "خالد" نظرة جده له، لكن الشيخ عاد مرة أخرى وهو يقول:

- كـلام عظـيم، لكـن دعنـا نوضـح معًـا بعـض الأفكـار والمفـاهيم.. إن الخـالق سـبحانه قـد خلـق نفـوس البشـر متسـاوية، ثـم بـث فيهـا التقـوى والفجـور، الـنفس فـي ذاتهـا هبـة مـن الخـالق يضـعها فـي الإنسـان حـين يضـع فـي العقـل روحـه، تخيلهـا فراغًـا مـن الـدخان، وعلـى حسـب أوامـر العقـل ومكنوناتـه يتكثـف الـدخان فـي طبقـات وحلقـات وكـل طبقـة بهـا حظهـا مـن التقـوى والفجـور، تمامـا كـالأحوال، فلـيس هنـاك للإنسـان نفـس واحـدة مطمئنـة أو خائفـة أو غيرهـا ولكنهـا أحـوال الـنفس، هـي طبقـات كالسـموات وعلـى حسـب الفتـرة التـي يكـون فيهـا الإنسـان وخبرتـه وإيمانـه وثباتـه وتوبتـه، يكـون حالـه ونفسـه التـي تظهـر منـه، ويصـارع الخير الشر بداخله حتى يظهر ما بداخل ذاته أكثر وأكثر.

صمت الشيخ بعدها لبضع ثوانٍ، ثم سأل فجأة:

- هل تعلم ما العدم الحقيقي؟

أجابه "خالد" وهو يحاول أن يزن كلماته:

- أظن أن العدم هو ضد الوجود، بمعنى إذا انتهى وجود الشيء ذهب إلى حيث لا وجود.

بدا أن "خالد" سيضيف شيئًا ما لكنه لم يفعل، فقال الشيخ:

- انظر، يا "خالد"، لما هو حولك جيدًا وأجبني، متى آخر مرة تناولت فيها الطعام؟

انتبه "خالد" إلى أنه فعلا لا يأكل ولا يشرب، فأكمل الشيخ كلامه:

- بدون الذكريات والأفعال مع المساجين هؤلاء، هل كنت ستختبر هذه الصفات وتعرف ماهيتها؟

أجاب على الفور:

- لا أعتقد ذلك.

- إن العدم الحقيقي، حين تقف عاجزًا عن معرفة ذاتك، حين لا تملك القدرة على تمييز مكنوناتك، حين تسبح في الفراغ لا تدري لا عن نفسك ولا عمن حولك، قد يكون لذاتك وجود، ولكن بدون أن تدرك وجودك فأنت في العدم. إن من أكبر نِعَم الخالق على الإنسان هي أن أوجده على هذه الصورة من صور الحياة.. نعم، يا "خالد" للحياة صور كثيرة أكثرها كمالًا هي صورة حياة الإنسان نفسه.

تغيرت فجأة نبرة الشيخ وهو يقول:

- احضر، يا "عتيق"، ومعك "راضي".

اندهش "خالد" حين رآهما أمامه فجأة، ثم ابتسم لهما ولم ينطق بكلمة. فقال الشيخ:

- "عتيق"، هل أنت حي؟

- نعم، أنا حي.

فسأله الشيخ في ود:

- هل تدرك ذاتك وصفاتك؟

- نعم أفعل.

- هل تدركهما بنفس الدرجة التي يفعلها الإنسان؟

طأطأ "عتيق" رأسه وقال:

- لا، ليس بالدرجة نفسها. إن طبيعة خلق الإنسان تتميز عن الجان بوجود الجسد الذي يعطي له بعدا ماديا يزيد من إدراكه للأمور، نحن - معشر الجان - عندما ننظر إلى الإنسان نرى نفسًا واسعة بلا حدود تكاد تحتوي المعارف جميعًا.

- إن الخالق أوجدك من العدم تمامًا كما أوجد "خالد"، لك ذات وعقل وله ذات وعقل، كلفك كما كلفه، كلفك على قدر احتمالك وخلقتك، وكلفه على قدر احتماله وخلقته، ولكن مع أفعال الجان في الأرض والتي وضح جليًّا أنها بسبب نقص في قدراتهم على إدراك الأمر.

صمت الشيخ قليلا قبل أن ينظر إلى "راضي" وهو يقول:

- أخبرني، يا "راضي"، ماذا تعرف عن تركيب جسم الجان؟

فرك "راضي" يديه وهو يقول:

- خلق الجان من نار، ففي خلقه نور النار وحرارتها كما أن فيه دخانها، نور النار في الداخل، ويخفيه الدخان من الخارج فيختفي الجان.

ثم طأطأ "راضي" رأسه وهو يكمل:

- الريح والهواء يطيران النار يمينًا ويسارا؛ لذلك تجدنا يتحكم فينا الهوى، نعلم ذلك والعابد منا يحارب هواه، وليس لنا ظل في الخارج، فظلنا يسقط بداخلنا.

صمت "راضي" وبدا عليه التأثر واضحا، فقال الشيخ:

- ولذلك فأنتم تفضلون المكوث دائمًا بجانب الإنسان، أليس كذلك؟

حرك "راضي" رأسه علامة الإيجاب، فابتسم الشيخ ثم نظر إلى "خالد"، وقال:

- من باب الجود والكرم أعطى الخالق الإنسان الصورة المادية في الظاهر بجانب تركيبه الباطن، أعطاه مُلكًا وملكوتًا، وتلك الصورة المادية تتيح للإنسان أن يختبر الأشياء ليس فقط في عقله وأفكاره بل

بالإحساس المادي وروحه الحيواني التي تعطيه البعد المادي في فهم الأمور، يرى تأثير أقواله وأفعاله ويسمعهما، يختبر أفكاره ونواياه بالألم والحزن والفرح، يعطي البعد المادي للأشياء لعل الإنسان - بالاختبار واكتساب الخبرات - يتعلم ويفرق بين التقوى ومقتضياتها، وبين الفجور ومقتضياته. أعطى الخالق الإنسان أوسع مجال بين الخير والشر، زرع فيه معاني التقوى، وزرع فيه معاني الفجور؛ ليس ليكون تقيًّا أو فاجرًا، ولكن ليعطيه المرجع والقياس، الذي به يقيس الأشياء والمكنونات والصفات، فيثمن الثمين، ويقبح القبيح بمعرفة ذاتية مزروعة في نفسه، وبمعرفة مكتسبة عن طريق الجسد والأفكار والصفات.

صمت الشيخ لحظات وهو يتطلع إلى "خالد"، ثم استطرد في حزم:

- ارجع، يا "خالد"، وحارب الكراهية والغل والحسد.

عاد "خالد" بجواده الذي دار حول البرج ليختار مكانا مناسبا يهبط فيه، بحيث يكون بعيدا عن أعين الحراس، وبعد أن هبط ، اتجه "خالد" إلى الفناء عندما لاحظ أن الجميع من حراس ومساجين يلتفون حول مسجون ما، الغريب في الأمر أنه لمح "راضي" و"عتيق" يقفان معهم وهما يبتسمان له، والأغرب أنه عندما اقترب؛ لقد كان الجميع يوسعون له الطريق وهم يقفون على الجانبين. تقدم بينهم أكثر حتى

رأى وجـه المسـجون الـذي يلتـف حولـه الحـراس، لقد كـان "شـهير"، وبطريقة ما كشف بعض الحراس مؤامرتـه، ومـا كـان علـى وشك أن يفعله بـ"خالد"، واقتادوه خارج الزنزانة.

نظـر ناحيـة "عتيـق" و"راضـي" وأشـار بيـده بمعنـى (مـاذا حـدث)؟ وبـدل مـن أن يجيبـاه ابتسـما لـه فـي غمـوض، فـأدرك أنهمـا بطريقـة مـا قـد تسـببا فيمـا حـدث مـع "شـهير"، ثـم اقتـرب أكثـر مـن "شهير"، وقبل أن يقول شيئا سمع أحد الحراس يقول:

- لماذا كذبت علينا وأخبرتنا أن "خالد" ينوي هدم السجن؟

فقال "شهير" بصوت يقطر منه الغل والكره والحسد:

- ألا ترون أن الجميع يلتفون حوله ويوقرونه؟ الجميع يحبونـه، حتى أنتم، أيها الحراس، تحبونه.

مسح الزبد الذي سال من فمه وهو يكمل:

- الحب سوف يهدم هذا السجن، نعم "خالد" يريد أن يهدم هذا السجن.

هنا تدخل "خالد" في الكلام وهو يقول:

- الحب لا يهدم، بل يعمر ويبني.

ابتسم "خالد" ابتسامة ذات مغزى وهو يكمل كلامه في بطء:

- لماذا لا تظهر رفيقيك الخفيين ليراهما الجميع؟

ظهر من العدم رفيقاه اللذان يشبهانه تماما، فنظر الجميع في ذهول إليهما، ليسود الصمت لحظات قبل أن يقول "خالد" في جدية واضحة:

- أم تريدني أن أناديكم بـ"سامر"؟!

ابتسم الثلاثة في مكر واضح وحدث أمر غريب، فقد التحموا معًا وشكلوا شخصًا واحدًا، وجه "خالد" إليه الكلام:

- أليس كذلك، يا سامر؟

- نعم، أنا "سامر"، أخو "مراد".

- لم تحتمل رؤية النار وهي تنطفئ على يدي، تمنيت لنفسك الشهرة والصيت، لم تحتمل أن يكون هناك شخص يحترمه ويحبه الناس أكثر منك، كرهتني وحقدت عليَّ، تمنيتَ أن تملك ما لديَّ، تمنيتَ لو أني أسجن إلى الأبد ولا أعود، كرهك وغلك وحسدك جعلوا منك لعبة في يد الشيطان، الذي أرسلك إلى داخل هذا السجن لتحاول أن توقع بيني وبين المساجين والحراس، فتضمن بقائي هنا إلى الأبد.

صمت "خالد" لحظات وبدا على وجهه الحزن قبل أن يقول في حزم:

- أليس كذلك؟

لـم ينطـق سـامر بأيـة كلمـة وهـو ينظـر إليـه نظـرة مليئـة بالغـل والكـره، ممـا جعـل الجميـع يتعجـب حـين ابتسـم "خالـد" وهو يقول:

- لكنـي أسـامحك.. نعـم، أنـا أسـامحك، فلـن أرد علـى الكراهيـة بكراهية مثلها.

قالها وتوجه إلى زنزانته، فعلا فجأة صوت "عتيق" وهو يعدو في اتجاهه:

- احترس.

التفـت "خالـد"، فـرأى "سـامر يحـاول أن يغـرس فـي ظهـره خنجرا كان يخفيه في طيات ملابسه، لكن "عتيق" تلقى الطعنة بدلًا منْه.

لم يكتفِ "سامر" بذلك، بل نزع الخنجر في غلظة من ظهر "عتيق"، ثم حاول أن يغرسه في صدر "خالد"، الذي كان قد التفت ناحيته بالفعل، فقفز جانبًا يتفادى الطعنة الغادرة، ثم سمع تلك الصيحة وصاحبها يقول في حماس:

- التقط السيف.

ظهر جده فجأة وهو يلقي السيف إليه، فالتقطه "خالد" في مهارة. هم "سامر" بطعنه مرة أخرى لكنه تفاداها وهو يقفز جانبًا في

سرعه، ثم غرس سيفه في كتفه، ترنح "سامر" قليلًا ثم سقط على الأرض مغشيا عليه.

نظر "خالد" إلى جده متعجبًا، وجرى نحوه يحتضنه في شوق، لفت نظره أن "عتيق" لم يمت، بل يقف على قدميه في حالة يرثى لها، و"راضي" يحاول أن يداوي جرحه، كما كان هناك ثلاثة مساجين ينطلقون نحوه في سرعة، عرفهم "خالد" على الفور.

إنهم الثلاثة أنفسهم الذين شعر معهم بالكبر والغرور والعناد، وعندما وصلوا إليه ليطوقوه ويشلوا حركته، وقبل أن يبدي أية ردة فعل أو يقول أي شيء، تكلم أحد الحراس ممن استمالهم الذئب وفي صوت عالٍ وجه كلامه إلى هؤلاء الثلاثة:

- اقبضوا على "خالد" ولكن لا تقتربوا من بعضكم كثيرًا، وإلا حدث ما لا يحمد عقباه.

التف المساجين الثلاثة حوله، ثم اقترب الحارس ليقبض عليه، لكن "عتيق" استجمع كل قواه وألقى عليه رداء الخفاء الذي كان يخفي به نصفه القصير، وفي اللحظة التي اختفي فيها "خالد" اقترب الثلاثة من بعضهم وهم يمدون أيديهم ليشلوا حركته أكثر، وقبل أن يدرك أيٌّ منهم الأمر، تلامست أجسادهم معًا، ثم اتحدت أجسادهم الثلاثة وكونوا جسدًا واحدًا، لكن الشيء الغريب بالفعل أن ذلك الجسد الجديد كان على صورة "خالد" نفسه..

"خالد" آخر يقف هناك وإن بدا مختلفا لهم، فقد كان يطل من عينيه الشر واضحًا، ثم نهض "سامر" بكل قوى الشر مرة أخرى وهو يبتسم ابتسامة مخيفة وجرى ناحية "خالد" الآخر ليغرس خنجره في قلبه.. سمع "سامر" صوت الحارس نفسه يأتيه مشوشا وهو يخبره ألا يقتل الغرور والكبر والعناد، فهو بذلك يساعده، لكن ذلك لم يوقفه، شعور النشوة بقرب موت "خالد" قد غطى على عقله واستيعابه للأمور من حوله.

غرس "سامر" الخنجر في ظهره بحنكة، بحيث ينغرس في القلب تماما قبل أن يدير مقبضه ليتأكد من موته، وكان له ما أراد، لقد قتل "خالد" الذي شبهت له صورته.

وفجأة سمع الجميع صوت زمجرة مخيفة وعلا صوت الذئب وهو يعدو في فناء السجن، التفت إليه الجميع، وأصابهم الفزع، وارتجفت أجسادهم، فقد حضر مندوب الشيطان بنفسه.

اقترب منهم الذئب وهو يعوي بصوت عال وقد اتخذ هيئة تشبههم، إلا أن أنيابه الحادة ومخالبه القوية كانت تظهر لهم في وضوح، ثم توقف عواؤه وهو يحوم حولهم، مما جعل الجميع يشعر بالخوف، ثم فوجئوا به ينقض على "سامر"، ويغرس فيه مخالبه ثم يرفعه عاليًا، والأخير يقول بصعوبة:

- لكن لماذا؟ فقد قتلت "خالد" كما أمرتني!

خفض الذئب يده قليلا وهو يقرَّب جسد "سامر" وهو ما زال يغرس مخالبه فيه، ونظر في عينيه، ثم زمجر في قوة وقال:

- أيها الغبي، لقد ساعدته ليصبح أقوى مما كان؛ أنت لم تقتله بل قتلت فيه الكبر والغرور والعناد.

وفي لا مبالاة، مزَّق الذئب جسد "سامر" وحوله إلى أشلاء أمام أعين الجميع، وظهر "خالد" الحقيقي وهو يخلع تلك العباءة ويبتسم في ثبات وهو يقول:

- لماذا تكرهني كل هذا الكره؟

كان الذئب يحوم حول "خالد" ويبتسم في سخرية وهو يقول:

- إن تمزيق نفسك وإظلام قلبك هي مهمتي المقدسة.

ثم بدأ جسد الذئب يكبر ويكبر حتى تحول إلى كيان مظلم مخيف، يصدر هديرًا قويًّا يشبه صوت ألف زلزال، ينفث من فمه ما يشبه النار لكنها بلا نور، هي نار ظلام، وبينما يتفادى "خالد" النار اقترب منه الجواد الذي كان لا يزال هناك، فقفز يعتلي ظهره، وطار به وهو يبذل مجهودا كبيرا ليتفادى تلك النار العجيبة.

كانت النار تهدم أي شيء تصطدم به وتحرقه في صمت، وبعد عدة مناورات نفذها "خالد"، طار بالجواد في اتجاه ذلك الكيان وهو لا يدري ماذا سيفعل بالضبط، إلى أن سمع صوت جده يقول:

- لا تطعنه في قلبه، ولكن افصل رأسه بالسيف.

تذكر "خالد" الكلمات العجيبة المدونة على السيف والتي تقول "سينعكس السحر ويموت مبعوث الشيطان، وتنتهي حياته الأبدية حين يقطع رأسه سيف القدسية". مال بجواده جانبًا وهو يتفادى قذيفة من النار، ثم تفادى ضربة من مخلب الكيان، وهو يطير إلى أعلى بمحاذاة صدره؛ فلم يستطِع الكيان الوصول إليه أو الإمساك به وهو يطير في هذا الموضع الملاصق له، وعندما اقترب "خالد" من رقبته، وقف على ظهر الجواد وهو يشهر سيفه ويقول:

- الآن، يا صديقي.

مال الجواد فجأة وطار بسرعة يقصد رقبة مندوب الشيطان، وضربه بالسيف ضربة قوية فصلت رأسه عن جسده، فخر الكيان على الأرض ببطء ومع شدة ثقله تشقق سطحها، وكأنها كانت الإشارة.. لقد بدأ كل شيء في الانهيار، وبينما رأس الكيان وجسده يذوبان ويختفيان أمام أعين الجميع، ظهر الشيخ المنير، وهو يبتسم ويقول:

- انظر مرة أخرى من حولك، يا "خالد".

نظر حوله فوجد أن البرج والسور يذوبان، تذكر فجأة ما كان مكتوبًا على باب السجن: إنه سجن الذات، وقرأ لأول مرة ما كتب على ملابس الحراس: حراس الصفات.

وفهم "خالد" الأمر، المساجين هم ذكرياته وأفعاله وصفاته، والحراس هم تقواه وفجوره، هم أحواله، والسجن هو نفسه وذاته، وبدأ المساجين والحراس في الاختفاء من حوله.

عاد الصوت يتردد في رأسه قويًّا وهو يقول:

- عندما وجد الشيطان أن المعاصي تغطي القلب بالران، والران إن كان يحجب وصول المزيد من النور إلى القلب إلا أنه لا يستطيع أن يظلم أنوار الفطرة نفسها؛ فقد يستعيد الإنسان نوره بالتوبة، هنا فهم الشيطان أن عليه إضلال الإنسان، فعلم الناس السحر لعلهم يظلمون أنفس بعضهم بعضًا، وكان هو نفسه سهم الحسد والغل والكره الذي يصيب المحسود.

ومن تحت الأرض برزت نار الهوى، ومع ظهورها، ظهر الحراس والمساجين مرة اخرى وتعلقت بها أنظارهم، ثم أخذوا يتمايلون مع لسان لهبها الذي يتراقص يمينا ويسارا؛ ومع إحكام سيطرتها عليهم بدأت قوى "خالد" تخور، وفجأة خرج من النار لسان من اللهب الأصفر ضرب صدره فترنح وسقط على الأرض.

سقط ممددا على ظهره وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، وصدره يعلو ويهبط في سرعة، وأحس ببرودة تسري في قلبه ونفسه، ثم بدأ ذلك الشلل يسري في جميع جسده ويسجن إرادته، حتى أصبح لا يستطيع أن يحرك حتى إصبع من أصابع يده أو قدمه. كان "خالد"

يسمع الصوت يأتي من بعيد وكأنه في حلم، يطلب منه في إلحاح أن يتغلب على شلله ويحرك جسده.

ثم بدأ يصرخ داخل عقله:

- قاومها.. استخدم إرادتك وتخلص من سيطرتها عليك.

لكنه لم يقوَ على الحراك، وبدا كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم برز للشيخ من العدم جناحان من النور، طار بهما في اتجاه "خالد" واخترق صدره، وانقطع اتصال لسان النار به، وتحرر "خالد" أخيرا، فشهق في قوة قبل أن يأخذ نفسا عميقا أعقبه خروج نور من صدره.

قام واقترب من النار وصدره ما زال يخرج النور، وكلما اقترب منها كان النور الخارج من صدره يزداد شدة، ثم اخترق النور النار وحدث انفجار مهيب، أطاح بكل شيء من حوله، حتى أنه أطاح بـ"خالد" نفسه الذي طار عاليا قبل أن يقع على ظهره مغشيا عليه.

لم يدر "خالد" كم من الوقت قد مر وهو مغشي عليه قبل أن يستفيق، هب واقفا على قدميه، وأخذ يتلفت حوله في دهشة.. لقد اختفى الجميع من حوله، لم يبقَ إلا الجواد الذي صهل في قوة، فمد يده حول عنقه، وأسند رأسه عليه لحظات يلتقط أنفاسه، ثم بدأ الجبل يهتز أسفل قدميه، وفي همة اعتلى ظهره وطار به بعيدًا.

ابتعد الجواد عن الجبل حيث سجن التقاء السماء بالأرض، وبمجرد أن ابتعد عنه وقف الجواد في الهواء وهو يرفرف بجناحيه، كان "خالد" يراقب هذا الجبل وهو ينهار كما انهار الجبل الآخر قبله، فرد الجواد جناحيه فجأة ثم مال بجسده في الهواء وانطلق بأقصى سرعة.

* * * *

الجزء الثالث
(الكتاب المبين)

(١)

افترقوا بعد أن كانوا أمة، لم ... شملهم واجمعهم على الكلمة

طار الجواد بحمله مبتعدًا عن الجبل الذي ينهار من خلفهما، التفت "خالد" يطل برأسه على المكان الذي حوي منذ دقائق معدودة جبلا عظيما، بلغت قمته السماء بل غاصت بداخلها، ثم أشاح بوجهه وهو ينظر أمامه، فهجمت على عقله الأسئلة تباعا، حاول جاهدا أن يطردها بعيدا، لكن هيهات، إنها تطرق باب عقله بقوة كبيرة تكاد معها أن تقتلعه وتدلف عنوة.

وكعادته أخذ يكرر الأسئلة في عقله قبل أن يعيد صياغتها وترتيبها: سجن التقاء السماء بالأرض.. ما هذا الاسم العجيب؟! أهو رمز ما؟ ثم برقت عيناه وهو يتمتم بصوت خافت لا يكاد يسمعه هو نفسه: آه فهمت، هكذا إذًا، إن الجزء الوحيد الذي تلتقي فيه السماء بالأرض هو النفس، هل كنت سجين النفس؟! لكن لماذا؟ ما الفائدة أن أعرف كل هذه الأمور عن تركيب الروح والنفس؟ ثم زفر في قوة وهو يقول: أشعر أني أحيا حياة مختلفة؛ حياة عجيبة تبدو وكأنها غير حقيقية وغير منطقية من جهات كثيرة، لكنها في نفس الوقت تحوي كل الحقيقة وكل المنطق، الصوت علمني الكثير عن الروح والنفس. قطب جبينه دلالة التفكير العميق وهو يستطرد:

- الصوت! ما هو؟ وما حقيقته؟ وما الفرق بينه وبين شيخ النور؟

ثم برقت عيناه مرة أخرى وهو يبتسم ويقول في بطء:

- إن الصوت بالنسبة للجن كشيخ النور بالنسبة لي، هو من يعلمهم ويساعدهم في عالمهم.. مهلا! كيف لي أن أسمعه وأحاوره؟! أنا إنسان ولست بجان!

عاد "خالد" إلى حيرته مرة أخرى، ثم ألح على رأسه سؤال منطقي آخر فتمتم مرة أخرى: "كيف يختفي جدي فجأة، ثم يظهر فجأة؟" ثم تنهد وهو يردد ما يجول بعقله: "إن السيف واللفافة ملكا لجدي فهو من أعطاني إياهما، يبدو أنهما بطريقة ما ملكا لعائلتي". لم يلبث أن زفر مرة أخرى وقد زادت حيرته عندما وصل بتفكيره إلى تلك النقطة، وتمتم:

- لماذا كل هذا الغموض؟ أهو غموض أم..؟

أومأ برأسه علامة الفهم وهو يقول بصوت عال هذه المرة:

- هي رموز ودلالات وليس غموضا، مفاهيم يجب أن أصل إلى معانيها وأترجمها.

كان صوته عاليا بحيث جعل الجواد يتوقف في الهواء وهو يرفرف بجناحيه، ثم حرك رأسه والتفت إليه قبل أن يطلق صهيله المعتاد، مما جعل "خالد" يتلفت حوله ليرى أين أخذه الجواد هذه المرة! لكنه كان لا يزال يحلق عاليا في السماء؛ مما جعله يشعر بالحيرة فسأل على الفور:

- لماذا توقفت هنا يا صديقي؟ ما الذي تتوقع حدوثه في هذا الموضع من السماء؟!

صهل الجواد مرة أخرى ولكن بصوت أعلى كأنه يستنكر ما يقوله "خالد"، والغريب أنه قد فهم ذلك وقال:

- أه، على غير العادة. أنت تنتظر مني أن أخبرك أين نذهب، أليس كذلك؟

ضرب الحنين أوصاله فشرد ببصره بعيدا وهو يتمتم بصوت خافت: "أمي الحبيبة، كم اشتقت إليكِ!" ثم مال على أذن الجواد وهو يقول في حماس مفاجئ:

- خذني إلى الديار أيها الصديق، دعنا نذهب إلى حيث توجد أمي.

صهل الجواد علامة الفهم، وانطلق في سرعة وقوة كعادته، ثم نجم عن الأسئلة التي تحتل عقله سؤال آخر، طردهم جميعا وبقي هناك وحده، حتى أنه قد احتل المشهد كله: كيف تبدو الديار الآن؟ فمع المتغيرات الكثيرة والسريعة من حوله، هيأ "خالد" نفسه لرؤية بعض التغيرات التي قد تكون طرأت على الديار بعد انهيار الكهوف والجبل.

مرت فترة والجواد يطير بسرعته المعتادة وراكبه شارد الذهن تماما، ثم أفاق من شروده على الجواد وهو يهبط بسرعة عالية،

فأغمض عينيه رغما عنه، ثم توقف الجواد وفتح هو عينيه ليرى أين توقف.

توقع أن يرى أي شيء غير الذي يراه الآن؛ لم يهبط الجواد على الأرض لكنه توقف على ارتفاع قليل منها، مما أتاح الفرصة له أن يرى المشهد من علٍ، وتملكته الحيرة الممتزجة بالدهشة وهو ينظر إلى ذلك المكان الجميل، حتى أنه غمغم بينه وبين نفسه: "هي المرة الأولى التي يخطئ فيها الجواد في الذهاب إلى مكان ما! فليس من المعقول أن تكون هذه الأرض هي دياري"

رأى على مرمى البصر أرضا منخفضة يكسوها عشب أخضر جميل، ويشقها من منتصفها تقريبًا نهر ذو مجرى متعرج، ومياهه زرقاء صافية، وعلى مساحة واسعة تصطف على جانبيه الخيام، كان المشهد بديعًا بحق، مما جعله ينظر إليه مشدوهًا. مرت اللحظات وهو يتطلع إلى ذلك المشهد الجميل، إلى أن تمالك نفسه أخيرا، ثم ابتسم وهو يميل على أذن الجواد ويهمس:

- لقد أخطأت في هذه المرة يا صديقي، لا يمكن أن تكون هذه الديار الجميلة دياري.

صهل الجواد في قوة، فاتسعت ابتسامة "خالد" وعلا صوته وهو يقول:

- لا، لا يمكن، ليست هي، وعليك أن تعترف بخطئك.

ثم ضحك بصوت عالٍ، لكن الجواد صهل في عناد، ثم طار بمحاذاة النهر في مستوى أفقي، حتى وصل إلى ما بدا لـ"خالد" أنه منبع النهر، ثم توقف في الهواء.. كان ماء النهر يخرج من عين كبيرة متدفقًا في قوة إلى أعلى قبل ينساب في مجراه.

لكن "خالد" لم يلق بالا للمشهد هذه المرة؛ حيث انصب اهتمامه على شيء آخر جعله يعقد حاجبيه، وهو يتطلع إليه في حيرة.. ذلك أن حواف عين الماء نفسها وجدرانها، تتكون من صخور حمراء وسوداء ويحيط بها من قمتها ما يشبه الثلج. تمتم بينه وبين نفسه: "لا يمكن! أهي نفس العين التي كانت بها نار الحمرة؟!"

وقبل أن يسترسل في أفكاره صهل الجواد ثم تحرك فجأة صوب مجموعة صغيرة من الخيام، التي تصطف بمفردها بعيدا عن باقي الخيام، على مسافة خلف العين، ثم هبط على الأرض خلف واحدة من تلك الخيام. وما أن ترجل "خالد" عن ظهره حتى طار بعيدا.

ابتسم "خالد" وهو يفكر في جواده الطائر الذي ينسى دائما أن يودعه قبل أن يرحل، كان يدور في حذر حول خيمة ما عندما وقع بصره عليها، امرأة عجوز تقوم بتنظيف بعض الأواني خارجها. كاد قلبه أن يحطم ضلوعه ويقفز خارج صدره؛ مع الفرح العارمة التي انتابته، وهو ينظر في سعادة يغلفها الحنين إلى تلك المرأة هناك، ثم

مسح دموعه التي انسابت على خديه قبل أن يفتح فمه ويقول بصوت متهدج:

- أمي!

التفتت إليه، وتسمرت في مكانها، فلم تتحرك أو تبدِ أيَّة ردة فعل والإناء يقع من يديها على الأرض، اقترب منها أكثر وظهر وجهه لها جليًّا، نظرت إليه والدموع تجري على خديها في صمت قبل أن تقول في لهفة:

- "خالد"، ابني!

جرى ناحيتها وفردت هي ذراعيها، وفي لهفة ارتمى في حضنها، ثم علا صوت بكائها وهي تحتضنه في شوق، مرت بضع لحظات من الصمت المغلف بالحنين والشوق، قبل أن تهتف فجأة:

- "خالد"، كنت أعلم أنك ستعود إلي.

رفع رأسه، ومد يديه يمسح دموع أمه، وهو يقول بصوت غلب عليه التأثر:

- لقد وعدتك بالعودة يا أمي، وها أنا ذا.

جذبته من يده وهي تقول في لهفة:

- ادخل معي.

دلف إلى الخيمة وأمه تقول في حماس:

- أخبرني يا بني، كيف حالك؟ وما هي أخبارك؟

التفت إليها "خالد" والابتسامة تعلو وجهه، هم أن يفتح فمه ليتكلم، لكنها بادرته وهي تقول بنفس الحماس:

- جوعان؟ يوجد بعض الطعام.

قاطعها "خالد" وهو يقول بابتسامة رقيقة:

- أنا لست جوعان، اجلسي وارتاحي.

جلس على أريكة صغيرة، وجلست أمه بجواره، يزين وجهها ابتسامة عذبة، فسألها:

- أخبريني بما حدث بعد أن تركتك في منزل العمالقة؟

- تقصد بعد أن سلمت نفسك إليهم لكي يتركوني أذهب.

أومأ "خالد" برأسه وهو يبتسم لها، فابتسمت بدورها ثم قالت:

- كانت الدموع تغمر عيني وأنا أنظر إلى العربة وهي تبتعد بك حتى اختفت من أمامي، فجلست أبكي في استسلام، لكن بعد فترة لم أعد أسمع اي صوت من حولي؛ فقررت أن أخرج وأرى ماذا يدور هناك.. لم أجد في الخارج أيَّ مخلوق، وقفت في مكاني وأنا لا أدري ماذا أفعل، وفجأة سمعت الصوت المميز لعربة تجرها الجياد، التفت

إليها في لهفة وقلبي يرقص فرحا؛ لقد ظننت أنها نفس العربة التي أخذتك بعيدا وقد عادت بك مرة أخرى.. اقتربت العربة رويدًا رويدًا.. سمعت صوت جدك الذي كان يقودها وهو ينادي عليَّ، ثم أوقفها أمامي وأشار إلي بالركوب، وانطلق بها مسرعًا قبل أن يأتي بي إلى هذه الخيمة، وطلب مني أن أمكث فيها حتى تعود أنت.

صمتت لحظات وهي تنظر إليه قبل أن تكمل في حنان:

- وقد عدت، يا بني.

قال "خالد" في لهفة:

- لكن أين هو جدي الآن؟ وكيف تغيرت القرية وأصبحت على هذه الحال؟

- لقد أصابتني الدهشة أنا أيضا حين صحبني جدك، فسألته نفس سؤالك، لكنه لم يجِبني واكتفى بابتسامة غامضة، وأنا حقا لا أعلم أين جدك الآن.

تذكرتْ شيئا ما فتوقفت عن الكلام، ثم نظرت إليه وهو تقول في بطء:

- وإن كان قد ترك لك هدية ورسالة.

سمع "خالد" صوت صهيل جواد يأتي من خارج الخيمة، فأسرع خارجًا وهو يظن أن جواده الطائر قد عاد، لكنه اندهش عندما

اصطدمت عيناه بجواد فتي أسود.. لحقت به أمه وهي تقول في سرعة:

- إنه الأدهم، هدية جدك لك.

ألقى "خالد" على الجواد نظرة طويلة، ثم ابتسم وهو يقول:

- هدية جميلة، ومقبولة.

اتجه إليه وهو يمسح على رأسه بيده، والجواد يبدي علامات الرضا وهو يصهل في قوة.. ضحكت الأم وهو تقول:

- يبدو أنه يحبك بالفعل.

- ولكن أين الرسالة؟

كان يجلس على الأريكة داخل الخيمة يقرأ رسالة جده للمرة العاشرة ((لمّ شمْل النصفين، وسر بهما في الطريق المستقيم، حررهما من المخاوف، وفي النهاية، عليك أن تثق بقلبك فهو دليلك)).

مر وقت طويل وهو جالس في مكانه شارد الذهن، يفكر في أمر الرسالة وما يمكن أن تعنيه، ثم انتبه فجأة وعقد حاجبيه وهو يرهف سمعه؛ أحدهم بالخارج ينادي باسمه في إلحاح، أصابته الدهشة وهو يتمتم بينه وبين نفسه: من الذي ينادي علي؟ وكيف عرف بوجودي هنا من الأساس؟. تحرك في سرعة إلى خارج الخيمة، فاصطدمت عيناه بذلك الشخص الذي يبتسم ابتسامة عريضة ويقول:

- مرحبا بعودتك، يا صديقي العزيز.

- "نجيب"!

تصافحا في حرارة، ثم دعاه "خالد" إلى الجلوس على أريكة أخرى موضوعة أمام الخيمة، جلسا يتبادلان التحايا في سعادة واضحة، ثم بدت على وجه "خالد" الحيرة وهو يسأله:

- ولكن كيف علمت بعودتي؟

- لدي مصادري الخاصة.

كان "خالد" يعلم أن "نجيب" يمزح معه، فابتسم دون أن يعلق، وبعد لحظات أضاف "نجيب":

- لقد رآك بعض الأشخاص وأنت تدخل الخيمة هنا، ومع سماعي بتلك الإشاعة التي تتحدث عن رؤية جواد أبيض بجناحين يهبط من السماء، تأكدت أنه أنت فعلًا، فأسرعت في المجيء إليك.

صمت لحظات وهو يتطلع إلى "خالد" والابتسامة تعلو وجهه قبل أن يقول:

- اشتقت إليك بالفعل، يا "خالد".

أخذ الصديقان يضحكان معًا، وهما يتبادلان الذكريات، ثم صمتا وهما يتطلعان الى ذلك الشخص الذى يتجه ناحيتها في سرعة، وقف أمامهما وهو يبتسم في سعادة ويقول:

- عودة ميمونة، يا "خالد".

وقف "خالد" من فوره وصافحه، وهو يقول في سعادة:

- "مراد"! لقد اكتمل عقد الفريق الآن.

كان يشعر بسعادة حقيقية وهو يرى صديقيه العزيزين، لكنه ما لبث أن عقد حاجبيه عندما لاحظ أن "مراد" يسلم على "نجيب" في جفاء واضح؛ و"نجيب" يرد على جفائه بجفاء مماثل، إلا أنه لم يُرِدْ أن يثير الموضوع في الحال، فاكتفى برسم ابتسامة على وجهه وهو يتحدث معهما.

خرجت الأم وهي تحمل على يديها صنية تحوي أكواب من مشروب ما وهي تقول:

- تفضلوا يا أبنائي.

شكرها "نجيب" وكذلك فعل "مراد"، قام "خالد" وأخذ الصنيه من أمه التي عادت إلى الخيمة، وبعد أن انتهى من توزيع الأكواب جلس في مكانه. قرب الكوب من فمه وهو يهم أن يرتشف رشفة منه لكنه لم يفعل؛ إذ التفت إليه "مراد" وقال في جدية واضحة:

- الزعيم يريد رؤيتك.

- الزعيم! أيُّ زعيم هذا؟!

- زعيم طائفتي.

لكن "نجيب" قاطعهما وهو يقول في سرعة:

- لقد جئت إليك لأطلب منك أن تأتي معي وتقابل زعيم طائفتي أيضًا، لقد جئتك قبل "مراد"، وعليك أن تقابل زعيمي أولًا.

- لكنني طلبت منه أولًا.

- وأنا جئت إليه أولًا.

عقد "خالد" حاجبيه وهو ينظر إلى صديقيه غير مصدق لما يحدث، وأخذ يتمتم بينه وبين نفسه: زعيمان وطائفتان! وهنا تذكر رسالة جده، فعلا صوته فوق صوت صديقيه وهو يقول بلهجة حازمة:

- أهدآ، أهدآ.

نظرا إليه والخجل يطل من وجهيهما ثم صمتا تماما، فأردف:

- أريد أن أعرف عن طائفتيكما المزيد.

نظر إليه "مراد" وهو يقول:

- إن الأمر جد خطير، فنحن على وشك الحرب.. نعم، على وشك الحرب حول من أحق بأن يسيطر على العين.

نظر "خالد" إليه في دهشة غير مصدق لما يسمعه، وقد أيقن من خطورة الأمر، لكنه تمالك نفسه قبل أن يطلب من "مراد" أن يحكي له كل شيء بالتفصيل ومن البداية.

فقال "مراد":

- بعد معركتك مع سيد النـار وإطفائك للنـار، وقبل أن تغادرنـا، قمت أنت بنصيحة الجميع ألا يسجدوا إلا للإله الخالق.

هز "خالد" رأسه، فأكمل "مراد" كلامه:

- فرحنـا جميعًـا عنـدما فهمنـا الأمـر، وتحررنـا مـن اسـتعباد الأسياد لنا، وبالفعل لبثنا وقتًا طويلًا لم يسجد فيه أحدنا إلا للإله الخـالق وحده، وفي هذا الوقت، تفجرت الميـاه العذبـة من مكـان العين وكونـت النهر مما أتاح لنا أن نزرع الأرض، واستقرت الأمور.. عمل البعض في الزراعة، وآخرون في رعي الأغنام.

صمت "مراد" ليبتلع ريقه وطـال صمته، ممـا جعل "نجيب" يقول في حدة:

- تحدث يا "مراد"، أو أكمل أنا.

لكن "مراد" صمت تمامًا، فأكمل "نجيب" في اندفاع:

- ثم عدتم إلا ما كنتم عليه، وبدلًا من أن يستعبدنا الأسياد أردتم أنتم استعبادنا.

- بهدوء، أرجوك يا "نجيب".

أنهى "خالد" جملته، ثم نظر إلى "مراد" وهو يضيف:

- دعنا نفهم الأمر بهدوء.

تكلم "مراد" مرة أخرى وهو يقول في ضيق واضح:

- لقد خرجت منا مجموعة تدعو لأن نتعلُّم السحر.

شرد ببصره لحظات كأنه يسترجع تلك الأحداث في مخيلته، ثم استطرد:

- وكانت حجتهم منع الأسياد من تكرار فعلتهم واستعبادهم لنا.

نظر إليه "خالد" وهو يقول في سخرية واضحة:

- وكيف تعلمتم السحر؟!

نظر "نجيب" إلى "مراد"، وهو يقول في استنكار:

- أخبره من علَّمكم السحر.

- الأسياد أنفسهم هم من علمونا إياه.

فتمتم "خالد":

- استعنتم بالجن كي يحموكم من الجن!

نظرا كلاهما إليه في حيرة، قبل أن يسأله "نجيب" في حذر:

- ماذا تعني بالجن؟ هل الجن هذا هم الأسياد؟!

- لا عليك يا صديقي، سأخبركما بكل شيء في حينه.

ثم نظر إلى "مراد" وهو يسأله:

- وماذا حدث بعدها؟

صمت "مراد" ولم يجب على الفور مما جعل "نجيب" يقول:

- بعد أن كان الهدف من تعلمهم السحر هو منع سيطرة الأسياد عليهم، تغير حال بعضهم، وبدؤوا يصنعون الأسحار للبشر مقابل المال وأشياء أخرى.

بدا الأسف واضحا على وجوه الجميع، ثم أكمل "نجيب" كلامه:

- ومع انتشار الضر والأذى من جراء الأعمال والأسحار بدأ يساور البعض الشك في وجود إله خالق بحق، ثم أخذوا يسألون عنه وعن ماهيته، وانتشر فيما بينهم الهمس عن حقيقة وجوده، وانتشرت على الألسن بعض الأسئلة: إن كان الإله الخالق موجودا بالفعل، فلماذا لا يظهر نفسه إليهم؟!.. وكرد فعل لهؤلاء، علت بعض الأصوات الأخرى التي تقول: إن الإله موجود بالفعل لكنه غاضب عليهم، ولذلك اعتزلهم وأصبح لا يتدخل في حياتهم.

صمت "نجيب" فالتقط "مراد" طرف الحديث، وفي أسف واضح قال:

- وبـدأ النـاس يبحثـون عمـن يقـربهم إليـه مـرة أخـرى كـي يسـتعيدوا رضـاه، مـنهم مـن صـنع تماثيـل وعبـدوها، ومـنهم مـن عبـد الحيوانـات، ومـنهم مـن عـاد وعبـد الأسـياد مـرة أخـرى وهـم ينـادون بـأحقيتهم للعبـادة مـن دون غيـرهم؛ وبـرروا ذلـك بـأن الأسياد هم الأقدر على حمايتهم.

كان "خالد" ينظر إليهما في ذهول والحزن يعتصر قلبه، مما جعل "مراد" يصمت على الفور، فتكلم "نجيب":

- وبمرور الوقت أصاب الندم ذلك النفر الذي نادى بوجوب تعلم السحر.

ثم نظر إلى "مراد" وهو يستطرد:

- وكانت هي البداية لظهور جماعة "مراد".

ظهر الضيق على وجه "مراد" جليا، لكن ملامحه لانت سريعا، وحاول أن يبرر لهما ما فعلوه فقال:

- لكنهم ولسبب ما كانوا موقنين من داخل أنفسهم بأن الإله لن يغفر لهم أو يتوب عليهم أبدا، مما أورثهم ندما على ندمهم، وأخيرا اهتدوا إلى ما يجب عليهم فعله.. عرفوا أنهم يجب أن يعملوا ويعملوا ليستحقوا التوبة والعودة إلى رضا الإله مرة أخرى، ومن أجل ذلك، فرضوا على أنفسهم بعض العبادات والأعمال الشاقة.

ضحك "نجيب" في سخرية عندما وصل "مراد" إلى تلك النقطة، مما جعل الأخير يقول له في حدة:

- وماذا عنكم يا "نجيب"؟ هيا أخبرنا.

وبدلًا من أن ينتظر إجابته، استكمل وهو ينظر إلى "خالد" ويقول في "استنكار":

- "نجيب" وطائفته أداروا ظهورهم لهذا كله، وبدلًا من أن يعترفوا بقدرة الأسياد ووجوب الاحتراس منهم، أو يقروا بأهمية العمل والعبادة كطريق لاكتساب رضا الإله الخالق، نادوا بأن الروح أقوى من الأسياد لأن الروح تتصل بروحانيات السماء التي ستحميهم من غدر الأسياد وشرورهم، وروحانيات الأرض جميعا.

خرج صوته ساخرا وهو يكمل:

- لقد استعانوا بروحانيات السماء بعد أن تفشى بينهم القول بأن الإله رضي عنهم بالفعل، ولن يغضب عليهم مرة أخرى فهو يحبهم كثيرا، كما كانوا يتهامسون فيما بينهم بأن الإله أسقط عنهم العمل والعبادة، وتركهم يحيون حياتهم كيفما شاءوا.

كان "خالد" يستمع إليهما في دهشة حقيقية قبل أن يسألهم:

- وهل لكم كتاب تستقون منه عباداتكم وعلومكم يا "نجيب"؟

- نعم، عندنا كتاب البشارة.

وعندما نظر إلى "مراد" لم يندهش عندما أخبره بأن كتابهم هو كتاب الحكمة، فسألهما فجأة وبصوت مليء بالحسرة:

- لكن لماذا يريد زعيماكما مقابلتي؟

نظر "نجيب" إلى "مراد" وهو يقول:

- أخمن أن السبب واحد هنا وهناك، فهما يريدان أن يحكِّماك في أمر السيطرة على منبع الماء، ومَن الأحقُّ به.

صمتُ "مراد" أكد لـ"خالد" أنه السبب نفسه الخاص بزعيمه، فزوى حاجبيه في تفكير عميق، مرت بضع لحظات من الصمت قبل أن ينظر إليهما ويقول:

- لقد قبلت.

جال ببصره بينهما قبل أن يضيف في بطء:

- لكني أريد أن ألتقي بكلا الزعيمين في وقت واحد وفي حضوركما، على أن يتم ذلك اللقاء عند العين كمكان وسط بينهما، وأن يكون اللقاء على عين الأشهاد.

* * * *

(٢)

حررهم من الظلام وسحر الأفكار ... وحرر المعتقد من التلبيس والضلال

امتطى "خالد" ظهر الأدهم واتجه به إلى حيث الاجتماع، بدا الأدهم جوادا فتيّا بحق؛ وهو يعدو بسرعة عالية وسط الأرض الخضراء المنبسطة، مما بعث الأمل في قلبه، وبعد رحلة قصيرة ممتعه فوق جواده وصل في الموعد، ليجد رفيقيه سبقاه إلى هناك بالفعل.

وكما طلب "خالد"، كان هناك بعض الحضور من كلا الجماعتين، ترجَّل عن ظهر جواده، ثم اتجه إليهم وعلى وجه ابتسامة، حيا بها الجميع كما حيا صديقيه، ثم لاحظ وجود مقعدين أعلى من باقي المقاعد، وقد وضع كل منهما قبالة الآخر على جانبين مختلفين من طاولة كبيرة، فخمن أنهما مكان جلوس الزعيمين.

تلفت حوله يتطلع إلى ذلك المكان الجميل.. لقد وضعوا الطاولة على حدود العين تماما، ومع تدفق الماء من أسفلها إلى أعلاها، ثم انسيابها في نعومة بداخل مجرى النهر بدا المشهد خلابًا، ظل يتطلع إلى المشهد من حوله، حتى لاح الزعيمان وهما يأتيان من بعيد، وخلف كل منهما رجاله، لقد أتيا في نفس الوقت تقريبا ولكن من جهتين مختلفتين من النهر، وبمجرد أن ترجل الزعيمان عن دابتيهما تحرك الرجال واندسوا بين الناس كل في جماعته.

لحق شخص من جماعة "مراد" بزعيمه وكذلك فعل شخص من جماعة "نجيب"، بدا له أن كلا الشخصين متشابهان في الشكل

والملبس؛ فكلاهما يرتدي السواد، وقد حلقا شعر رأسيها تمامًا، وكما خمن "خالد" فقد جلس كل زعيم في ناحية من الطاولة على أحد المقعدين، وجلس الأصلعين كل في مكانه بجوار زعيمه.

حيّا كلا الزعيمين "خالد" قبل أن ينظر كل منهما إلى الآخر في توتر شديد، وساد الصمت بعدها وطال، مما جعل "خالد" يأخذ المبادرة ويقول:

- شرف لي أن ألتقي بكما، والشرف الأكبر هو ثقتكما بي وتنصيبي حَكمًا بينكما في أمر العين.

وهنا قال زعيم "مراد" بصوت ناعم:

- الشرف لنا، يا "خالد" فأنت غني عن التعريف.

وغمغم زعيم "مراد" بصوت هادئ:

- الشرف لنا، لكن المهم أن تحكم بيننا بالعدل.

- نعم هو ذا، ولكن الأهم أن ترضيا بحكمي، أليس كذلك؟

قال زعيم مراد:

- لك كلمتي.

- ولك كلمتي.

نظر إليهما وهو يقول:

- مَن منكما يريد أن يبدأ الكلام؟

أشار زعيم "نجيب" إلى خصمه ليبدأ هو، فقام وهو يقول بصوته الناعم:

- نحن نرى أننا أحق بالسيطرة على العين؛ فنحن الأصل الذي خرج من بيننا الفريق الآخر، وكما يخبرنا كتاب الحكمة (الذي فيه حكم كل شيء) فنحن نرى أن الإنسان أخطأ في حق الإله الخالق، وعبد الأسياد ونسيه؛ لذا فإن الإنسان غير مؤهل بعد ليأتيه الوعد، حين يأتي المنقذ ويجعلنا نحن الأسياد على الأرض.

صمت لحظات وهو يتفرس في وجه "خالد" ليرى تأثير كلامه عليه، ثم ارتفع صوته فجأة وإن ظل على نعومته وهو يقول:

- لذا فنحن نرى أن علينا أن نلتزم الأحكام كلها تمامًا كما كتبت في الكتاب، وأن نجتهد بعبادة الأجساد في الظاهر لتسمو الأرواح في الباطن، كما نرى أننا حين نصبح أغنى الناس وأفضلهم، سنكون نحن فقط خلفاء الإله على الأرض؛ ومن ثم سيتحقق الوعد ويأتي المنقذ ويأخذنا لنحيا في السماء بجوار الإله، وعليه فنحن نريد مكان العين لنقيم من حوله معبدًا كبيرًا نعبد فيه الإله ونبكي فيه ونعبر عن ندمنا على تهاوننا ومعصيتنا من قبل، ونقيم فيه تعاليمنا ونذورنا وندعوه أن يحمينا من شرور الأسياد.

صمت بعد خطبته فقام الآخر، وبصوته الهادئ قال:

- نحن نملك كتاب البشارة (الذي فيه الهدى والنور) يخبرنا أن الإله يحب الإنسان كثيرًا؛ لذا فهو قد سامحه بالفعل على جميع أفعاله ومعاصيه.

ثم نظر إلى الجمع وهو يبتسم في سرور ويقول:

- لقد سامحنا الإله، وجاء الوعد بالفعل، ولقد أُنقذت أرواحنا، كما تأكدنا من أننا أحق من غيرنا بأن نكون خلفاء الإله، وكل ما علينا فعله الإيمان بذلك دون الحاجة إلى شريعة أو عمل جسد وعبادة.

ثم التفت إلى جماعته وهو ينظر إليهم في ود باد ويقول:

- حين أتانا الوعد أصبحنا مؤهلين للحياة مع الإله المحب، الذي يعرف مدى ضعفنا فيسامحنا كلما أخطأنا ما دمنا نقر بأخطائنا ونعترف بها، إن الأمر هكذا ببساطة؛ لذا فنحن أحق بالعين منهم، ومن يريد أن ينضم إلينا فليفعل، نحن نريد أن نقيم معبدًا لمناجاة الإله والتعبير له عن مدى حبنا وشكرنا له على إنقاذ أرواحنا، والاعتراف فيه بأخطائنا، وأيضا ليكون المكان الذي تتنزل عليه البركة وتأتيه روحانيات السماء التي تباركنا وتحمينا.

ابتسم في هدوء ثم جلس في مكانه، أخذ "خالد" ينظر إلى كلا الزعيمين في دهشة، ثم تكلم وهو يقول:

- ولكن لماذا مكان العين بالذات؟

قال زعيم "مراد" في استنكار:

- السبب واضح وجليٌّ؛ إنه المكان نفسه حيث هزمت أنت السحر وأطفأت النار، إنه المكان الذي تدفق منه الماء، إنه المكان الموعود.

وقال الآخر:

- إنه مكان مبارك.

صمت "خالد" طويلًا وهو ينقل عينيه بينهما غير مصدق لما يسمع منهما، وفي هذه اللحظة بالذات أطل من عينيه نظرة حزينة، قرأها "نجيب" ولاحظها "مراد"، فجلس في صمت غير مصدق لما يسمع وصمت معه الجميع، وبعد لحظات رفع عينيه وهو يقول في مرارة:

- كيف تصل بكم الرغبة في أمر ما إلى حد التناحر والتنازع فيما بينكم؟ حتى توشك أن تقوم بينكما حرب بسببه!

ثم صمت مرة أخرى وهو يعقد حاجبيه في تفكير عميق، وطال صمته هذه المرة، ثم قام مرة أخرى وهو ينقل بصره بين الزعيمين ويقول:

- لكن لماذا بدلتم المكتوب في الكتابين؟

فغر جميع الجالسين أفواههم ولأسباب مختلفة، ثم تجرأ "مراد" وقال:

- لم يغير زعيمنا شيء من كتاب الحكمة، أم أنك تقصد الطائفة الأخرى؟

تحدث "نجيب" في سرعة:

- نحن لم نغير شيء من كتاب البشارة.

بدا على وجه "خالد" الصدق وهو ينظر إلى صديقيه ويقول:

- لقد بدَّلا المكتوب في الكتابين بالفعل.

وأسقط في يدي الجميع، فالتفت "نجيب" إلى زعيمه يسأله في حدة مفاجئة:

- هل بالفعل بدلت المكتوب؟

أراد زعيمه أن يتكلم وينفي تلك التهمة عن نفسه، لكن الكلام تحشرج في حلقه حتى أنه سعل في شدة، وبعد أن هدأ سعاله لم يتكلم أيضا. كان الذنب يطل من عينيه واضحًا، وهو نفس ما بدا في عيني الآخر، دفن "نجيب" وجهه بين يديه غير مصدق، وبدا على "مراد" الذهول.

نظر "خالد" إلى الرجل الأصلع الجالس بجوار زعيم "نجيب"، وقال:

- أستحلفك بالإله الخالق أن تخبرهم الحقيقة.

نظرة إليه الأصلع نظرة رجاء وبدا على وجهه التردد واضحا، فهب "نجيب" واقفا ثم قال:

- أخبرنا الحقيقة يا رجل الدين.

تعالت من حولهم الأصوات وهي تنادي رجلي الدين بأن يقولا الصدق، فنظر أحدهكا إلى "خالد" ثم قام من مكانه وهو يقول:

- لقد فعلنا الصواب.

علت أصوات الاستنكار من حوله مما جعله يصمت تماما.. أشار "خالد" إليهم بيده ليهدؤوا ويعطوه الفرصة، لكن الرجل لم ينتظرهم، وفي اندفاع ينم على مدى إيمانه بما سيقول علا صوته:

- نعم لقد فعلنا..

ثم التفت إلى "خالد" في تحد وهو يضيف:

- أنت لم ترَ مقدار الخوف الذي ملأ قلوب الناس، لقد رأوا بالفعل ما يستطيع الأسياد القيام به.

- تقصد الجن والشيطان، أليس كذلك؟

ضاقت عين الرجل وهو ينظر إلى "خالد" في ريبة، ثم صمت تماما. علت الهمهمات والجميع يسأل بعضهم بعضا عن ماهية الجن

والشيطان، نظر "خالد" إلى صديقيه، ثم انتبه إلى رجل الدين الآخر الذي كان يقول في تلك اللحظة:

- وفعلناها نحن أيضا، ولسببين؛ الخوف الذي ملأ القلوب، خوف لم تستطع أن تزيله التعاليم والعبادة، الخوف من أن نعود إلى الاستعباد والذل والمهانة، لقد ارتأينا في وقتها أن نخبرهم بأن الكتاب يقول بأنهم غير مؤهلين بعد للحياة الأبدية؛ كي نزرع في نفوسهم على الدوام محاولة إصلاح أنفسهم.

قاطعه "خالد" هو أيضا:

- لقد تم ذلك كله بعد أن تعلمتم السحر، أليس كذلك؟

طأطأ رجل الدين رأسه وهو يقول:

- بلى، وهذا هو السبب الآخر، حين حاولنا تعلم السحر من الجن والشيطان، فتحنا لهم البوابات بعد أن كانت قد أغلقت...

ثم ما لبث أن علا صوته وهو يقول:

- ألا ترى لماذا نجتهد في العبادة؟ ألا ترى لماذا نريد العين بشدة؟

ثم قال في صوت حاد والدموع تلمع في عينيه:

- إن لم نستطع أن نستميل الجن والشياطين ونستخدمهم، فلا بدَّ أن نحمي أنفسنا منهم حتى يأتينا الوعد.

كان "نجيب" ينظر طول الوقت إلى زعيمه ورجل دينه في انتظار أن يسمع تبريراتهما أيضا، ففهم زعيمه ذلك، وبمجرد أن انتهى رجل دين "مراد" من كلامه وجلس، قام رجل الدين الآخر وبدأ يتكلم:

- على العكس منهم، فنحن أردنا أن نطمئن أتباعنا ونخبرهم بأنهم محصنون، نخبرهم بأن الوعد قد أتاهم بالفعل وتم إنقاذهم، نخبرهم بأن ينظروا إلى روحانيات السماء فهي من ستباركهم وتحميهم من الجن والشياطين.

- أستحلفك بحق الإله أن تقول الصدق، هل كانت حقا تحميكم دون أن تطلب منكم أن تفعلوا أيَّ شيء في المقابل؟

نظر إليه رجل الدين هذا نظرة طويلة ثم خفض رأسه وهو يقول:

- في البداية، كانت هذه الروحانيات تحمينا بالفعل دون أن تطلب منا أي شيء في المقابل، وبعد فترة بدأت تطلب منا أن نفعل بعض الطقوس والنذور، وكنا نفعل ما تطلبه منا بعد أن نصيغه ونقوم بوضعه في الكتاب حتى يصبح جزءا منه.

نظر رجل الدين إلى الجميع، وهو يقول في حدة مفاجئة:

- فهم في النهاية ملائكة.

كـان "خالـد" صـامتًا يستمع إليـه فـي تركيـز حتـى قـال عـن هـذه الروحانيـات بأنهـا مـن الملائكـة، وهنـا أشـار إليـه بيده يطلـب منـه عـدم الاستمرار في الكلام ليوضح:

- هؤلاء ليسوا ملائكة، بل روحانيات تسكن الكواكب السيّارة، لقد قابلت نفرا من الملائكة من قبل، وهم من أخبروني بأمر روحانيات الكواكب.

وصـمت الجميـع مـن شـدة المفاجـأة، ثـم نظـر "خالـد" إلـى الزعيمين وهو ويقول:

- لقد ظلمتما أنفسكما قبل أن تظلما الناس من حولكما.

تعالت بعض الأصوات التي تطالبه أن ينطق بحكمـه الآن، لكنـه استوقفهم بيده وهو يقول في هدوء:

- لـيس بعـد، أحتـاج إلـى وقـت كـاف للتفكيـر قبـل اتخـاذ القـرار المناسب.

هنـاك وسـط الجمـوع، كـان يقـف أحـدهم وهـو يحـاول جاهـدا أن يخفـي نفسـه عـن عينـي "خالـد"، يخفـي وجهـه كلـه عـدا عينيـه اللتـين تفضـحانه؛ والكـره يقطـر منهمـا بشـدة، وهـو ينظـر إليـه بوجهـه الملـثم وقـد اتخـذ قـراره بالفعـل، سـوف يـنجح هـذه المـرة، سوف يقتل "خالد".

غادر "خالد" الاجتماع على عجل، ثم قفز يعتلي ظهر جواده الأدهم، وانطلق به عائدًا إلى خيمته، وانطلق من خلفه الملثم.

انطلق الأدهم براكبه الذي بدا شارد الذهن تماما، وهو يفكر بعمق في ذلك الاجتماع وما دار فيه، يفكر في أمر الزعيمين ورجلَي الدين اللذين حرفا الكتابين، ثم تذكر جده والرسالة، وتمنى لو كان جده معه الآن؛ فيأخذ نصيحته ويعرف منه ماذا يجب عليه أن يفعل.. لم يشعر بذلك الملثم الذي يقترب بجواده من خلفه، ولم يشعر به وهو يستل سيفه من غمده، ولا وهو يقترب منه في سرعة ويده مرفوعة بسيفه؛ ليهوي به على رقبته من الخلف، كان على وشك أن يضرب رقبة "خالد" بالفعل لولا صوت "مراد" الذي صك أذنه وهو يصرخ محذرًا إياه.

كل ما رآه "خالد" وهو يلتفت خلفه نصل سيف يهوي على رقبته، وبحركة تلقائية خفض رأسه مما جعله يتفادى نصل السيف الذي ضرب الهواء، فأطلق الملثم صرخة غضب عالية قبل أن يحاول طعنه هذه المرة، لكن "نجيب" كان قد أخرج قوسه وأطلق منه سهمًا، أصاب الملثم في كتفه وألقاه من على صهوة جواده أرضًا، أصاب الجواد الفزع فأكمل عدوه بمفرده مبتعدًا، ومن خلف "نجيب" ظهر "مراد" وهو يمتطي جواده بدوره.

أوقف "خالد" الأدهم وقفز من فوقه وهو يجري مسرعا في اتجاه الملثم الذي يرقد على الأرض.. اقترب منه في حذر قبل أن ينحني عليه، ثم يمد يده وهز كتفه في قوة، لكن الملثم كان مغشيًّا عليه تمامًا، وصل إليه صديقاه هذه اللحظة، فنظر إليهما في امتنان واضح، وقبل أن يقول أية كلمة شكر، انحنى "مراد" ومد يده ليزيح اللثام عن وجهه الرجل، وشهق الجميع وهم يقولون في قت واحد:

- "سامر"!

علا صوت "مراد" وهو يقول في حيرة:

- أخي "سامر"!، لا يمكن، لا يمكن، لكن لماذا؟ لماذا؟!

تسمر بعدها تمام وهو يأخذ نفَسَه في صعوبة، وبعد لحظات كان قد هدأ قليلا مما جرأ "نجيب" على النظر إليه وهو يقول في أسف وبتلعثم واضح:

- لقد كان يغطي وجهه كله، لم أقصده بالذات، لكنه كان على وشك أن يقتل "خالد".

تجاهله "مراد" تماما، ونظر من بين دموعه إلى "خالد"، وقال بصوت مبحوح:

- لماذا يريد "سامر" أن يقتلك؟

نظر إليه "خالد" دون أن ينطق بكلمة واحدة، فضاقت عيناه وهو يقول في حيرة:

- وكيف تعرف أخي "سامر" من الأساس؟

وفجأة أخرج سيفه من غمده وشهره في وجه "خالد" وهو يكمل في حدة:

- أخبرني كل شيء الآن وإلا قتلتك.

تحرك "نجيب" وهو يزيح يد "مراد" التي تحمل السيف بعيدا وببطء، فجأة تحرك "مراد" وأعطاهم ظهره قبل أن يعيد سيفه إلى غمده مرة أخرى، وبدون أن يلتفت إليهما قال:

- لقد نطقت باسمه بمجرد أن أزحت اللثام عن وجهه.

- اهدأ، وسأخبرك بكل شيء، لكن الأهم الآن هو علاج "سامر"، دعنا ننقله إلى الخيمة ونحضر له طبيبًا.

هدأ "مراد" بعدها تمامًا وقد استعاد رشده وهو يقول:

- إنه من هاجمك وأراد قتلك.

تعاون الجميع على حمله حتى وضعوه على ظهر جواد "مراد"، الذي ركب معه ليعود به إلى خيمته ويعالجه بين أهله، وبينما "مراد" على وشك التحرك، التفت إلى "خالد" وهو يقول:

- اذهبا إلى خيمتك وانتظراني هناك، ولا تقول أية كلمة قبل أن ألحق بكما هناك.

اندمج "خالد" ونجيب في الحديث وهما يجلسان على نفس الأريكة خارج الخيمة، يتذكران بعض الأمور من طفولتهما، وكيف كان الجد يقص عليهما القَصص، فسأله "نجيب":

- لكن أين جدك الآن؟

- لا أدري حقًّا.

شعر "نجيب" بالذنب بعد سؤاله هذا، خصوصًا وقد اكتسى وجه "خالد" بالحزن وصمت تماما. مرت ساعة كاملة قبل أن ينضم إليهما "مراد" الذي كان يسرع الخطى وهو يقترب من الأريكة ليجلس معهما، وبمجرد أن فعل سأله "خالد" في لهفة حقيقية:

- كيف حال "سامر" الآن؟

- سيكون بخير، لم أتركه حتى اطمأننت عليه.

ثم نظر إليهما وهو يقول:

- إياك أن تكون قد بدأت الحكاية في غيابي وإلّا!

قاطعه "خالد" وهو يبتسم ويقول:

- لا، لم أفعل.

ثم بدأ يقص عليهما القصة كلها، وهما يستمعان إليه في تركيز واضح، وتعابير وجهيهما تتفاوت بين الاندهاش وعدم التصديق وأحيانا الشرود.. لم يجدا ما يعلقان به بعد أن أنهى حديثه، ثم هز "مراد" رأسه وهو يقول فجأة قاطعا الصمت الذي خيم عليهم:

- أصدقك في أمر "سامر"، وإن كنت لا أفهم كيف تواجد معك في السجن هناك!

صمت بعدها كأنه لن يضيف شيئًا آخر إلا أنه نظر فجأة إلى "خالد" وهو يقول:

- لقد كان يكرهك حقًّا، يتحدث عنك بالسوء دائمًا، ويرى أنك مدعٍ للأخلاق والورع، كما كان يقول إن بطولاتك زائفة وأنك في النهاية تبحث فقط عن الشهرة.

وصمت بعدها، وكالعادة لم يطل صمته فعاد يقول:

- لقد جرحه "نجيب" دفاعًا عنك، وانتهى الأمر، ولا ضغينة بيننا.

ثم نظر إلى "نجيب" وهو يبتسم ويضيف:

- ولا بيننا.

- لا تدري كم سرني كلامك هذا؛ فأنا لا أريد أن يكون هناك أي كراهية بيني وبين أي أحد خصوصا أنت و"نجيب".

كان "خالد" يتحدث في صدق حقيقي، مما جعل رفيقيه ينظران إليه في ود وهما يبتسمان ابتسامة صافية وصمت الجميع.. قطع "مراد" حبل الصمت وهو يسأل:

- ولكن أين رسالة جدك التي تركها لك؟

دخل "خالد" الخيمة ثم عاد بورقة ما، أعطاها إلى "مراد"، فقرأها بصوت عالٍ:

- لم شمل النصفين وسر بهما في الطريق المستقيم، حررهما جميعا من المخاوف، وفي النهاية عليك أن تثق بقلبك فهو دليلك.

قال "نجيب" في حيرة:

- ماذا يعني جدك بـ "حررهما من المخاوف"؟

- عندما قرأت الرسالة أول مرة لم أفهم منها شيئا، لكن بعد أن قابلتكما وبعد الاجتماع مع الطائفتين، أستطيع أن أقول أن المقصود بالنصفين هنا كلتا الطائفتين.

ثم قال "نجيب":

- والمخاوف هي ما كان يتحدث الزعيمان عنها.

قال "مراد" في حماس:

- نعم، فرجل ديني ذكر أمر فتحهم البوابات المغلقة أو ما إلى ذلك.

- ورجل ديني تحدث عمن كان يظنهم الملائكة حين قاطعه "خالد" وأخبره أنهم روحانيات الكواكب، كان رجل الدين يقول فيما معناه: إن هؤلاء الروحانيات ولكي يحموهم ويباركوهم فهم يطلبون منهم في المقابل أن يفعلوا بعض الأشياء التي لم يستطيعوا أن يرفضوها.

قام "خالد" يتحرك ذهابا وإيابا، قبل أن يتوقف وينظر إليهما ويقول في حماس:

- هذه هي مخاوفهما التي لابد أن أخلصهما منها.

ثم صمت قليلا قبل أن يضيف في حيرة:

- ولكن كيف أفعلها؟ كيف؟!

*****

كان "خالد" يمشي في قوة وثبات وهو يخرج من ذلك الكهف، ويسير من خلفه شخصان، يتحركون في همة ونشاط وسط ذلك الضباب الذي يغطي المشهد كله في الخارج، لكن قلب "خالد" كاد أن يتوقف؛ حيث انتبه إلى أنهم قد خرجوا من الكهف ليجدوا أنفسهم يسيرون فوق جسر ضيق يمتد في السماء.

استعاد رباطة جأشه في سرعة على الرغم من ارتفاع الجسر الشاهق، وعاد يسير بنفس الهمة والثبات يتبعه رفيقاه، وعندما نظر أمامه ليتبين الطريق رأى نورا على مرمى البصر، ثم ما لبث ذلك النور أن تحرك في اتجاه "خالد" ورفيقيه، التقى بهم في نقطة ما فوق الجسر، وقف النور أمامهم وتكلم بطريقة ما، والغريب أن "خالد" كان يفهم ما يقول:

- إن "خالد" هو الوحيد القادر على أن يضع خريطة الإنقاذ.

ثم وجه كلامه إلى "خالد" خاصة وهو ويضيف:

- لماذا لم تضعها حتى الآن؟ لماذا لم تمنع ضرر بوابات روحانيات الأرض، وضرر أبواب روحانيات الكواكب؟

وبدون مقدمات وجد "خالد" نفسه ورفيقيه على الأرض، وهو يخط خطوطًا كثيرة منها المتعرج ومنها المستقيم، فرفع بصره إليهما وهو يقول:

- إنها الخريطة.

ثم زوى ما بين حاجبيه وهو يفكر في عمق قبل أن يقول في شرود:

- هي أشبه بمعركة الواو.

تغير المشهد مرة ثانية ليجد نفسه وسط الثلوج أمام الكوخ الخشبي مباشرة، جرى مسرعا يصعد الدرجات الثلاث ليصل إلى بابه ثم يدفعه في لهفة، لكن الكوخ كان فارغًا، وفي تردد مد قدمه إلى داخل الكوخ، وهو يقلب عينيه فيه، وبينما يستدير ليغادر الكوخ انتبه فجأة إلى شيء يشبه المخطوطة موضوع على الأرض، في مكان جلوس الشيخ تمامًا.

تردد كثيرا قبل أن يحسم أمره وينحني عليها ليلتقطها، ثم فضها وبدأ يقرأ الكلام المدون فيها بحروف من نور بدءا من العنوان: (معركة الواو)

((هي معركة نيل التحرير، من روحانيات الشواغل والموانع والعوائق، من أسحار الضر والأذى، والتحرير من روحانيات الرصد، تلك الروحانيات التي رصدتنا منذ زمن بعيد بهدف السيطرة علينا؛ لكي يوجهوا نفوسنا وذواتنا من داخلنا بحسب هواهم هم، بحيث تبدو أعمالنا ومعاصينا وكأنها نابعة منا، فتجلب علينا أعمالنا أسباب العقاب، معركة لإعادة ميزان العدل والكيل بحسب العمل، بحيث يكون الميل فيها للرحمة وليس العقاب، معركة تحرير الأفكار من التوجيه بطريق الأوهام والمخاوف، معركة الربط بين الباطن (و) الظاهر لخلق مجال بينهما تسري فيه الخيرات من الباطن إلى الظاهر والعكس دون عوائق الكيد والسحر والرصد، معركة لتحرير الرابط بين الهوية (و) الصورة، بين الروح (و) الجسد، وجعل ذلك الرابط

برزخًا نقيًّا يسير في الاتجاهين في يسر؛ حتى يسهل علاج عِلَل الروح المرتبطة بالجسد (و) علاج علل الجسد المرتبطة بالروح، ومن ثم تعيش النفس في نعيم السلام بينهما، هي معركة للمِّ الشمل))

وفجأة بدأ يتسلل إلى عقله صوت ينادي باسمه، ورويدا بدأ ذلك الصوت يصك أذنه في قوة.

فتح عينيه وسمع صوت "نجيب" ينادي عليه في إلحاح من الخارج، انتبه في هذه اللحظة إلى أنه ممد على الأريكة داخل الخيمة، لقد كان في حالة ما أسماها الصوت من قبل (انتقال للوعي)، قام في نشاط فاجأه هو نفسه، ثم خرج من الخيمة، ليجد صديقيه في انتظاره.

استقبلاه وهما يلهثان في شدة، ومن دون حتى أن يلقي السلام قال "مراد" في عجلة:

- لقد عرفت أين تقع بوابات روحانيات الأرض.

نظر إليه "خالد" نظرة فرح وهو يسأله:

- أين هي؟ وكيف عرفت مكانها؟

أجاب السؤال الثاني أولًا وهو يقول:

- كنت أتحدث مع الزعيم فأخذت أتحايل عليه، حتى أوقعته في الكلام، أما عن مكانها ففي كهف عميق خلف الشلال الكبير، حيث يصب النهر ماءه.

استمع إليه في تركيز دون أن يقاطعه أو يبدي له أي ردة فعل، فالتقط "نجيب" طرف الحديث من حيث انتهى رفيقه قائلا:

- النهر ينتهي بشلال عظيم، حيث يصب الماء في باطن الأرض.

أومأ "خالد" برأسه، ثم سأل:

- وكيف سنصل إليها إذًا؟

أُسقِط في يدي "نجيب" و"مراد"، فنقل "خالد" بصره بينهما وهو يضيف:

- نحن لا نعرف مكانها بالضبط ولا مدى عمقها، ولا حتى شكلها أوعددها.

أجابه "مراد" في سرعة:

- هي سبع بوابات.

اقترح "نجيب" أن يذهبوا إلى مصب النهر ويتبينوا الأمر على الطبيعة، كما اقترح "مراد" أن يأخذوا معهم كمية كبيرة من الحبال، وقد كان.

أخذ الثلاثة يطرقون الأرض بجيادهم في سرعة وجسارة، حتى استحال المشهد في أعينهم إلى لوحة جميلة وإن كانت بسيطة؛ فهي

تتكون من لونين فقط بدون تفاصيل للأشياء، اللون الأخضر ومعه أزرق الماء والسماء.

بدا لـ"خالد" أن النهر يمتد إلى ما لا نهاية، وهم بقول شيء ما لرفيقيه، لكن صوت "نجيب" علا فجأة وهو يطالبهم بأن يبطئوا من سرعتهم؛ حيث اقتربوا من نهاية النهر، وانتهت الأرض فجأة.

توقفت الجياد على حافة الشلال وترجلوا عنها، اقترب "خالد" من نهاية الأرض وهو ينظر إلى أسفل وأخذه المنظر؛ منظر مهيب والماء يتساقط في نعومة وسرعة إلى ذلك العمق السحيق، ومع سقوط الماء واصطدامه بالماء الراقد في الأسفل، يرتفع جزء من جراء الاصطدام وهو يفور، فيعطي لونا أبيض بجوار الأزرق. بدا المشهد كله مهيبًا بحق، وهم يتلفتون هنا وهناك لعلهم يجدون طرف خيط. اقترب من الحافة أكثر، وانحنى ينظر إلى أسفل، وفجأة صك أذنه صوت يناديه من داخل الماء، والغريب في الأمر أن رفيقيه قد سمعاه أيضا:

- أقبل ولا تخف، استخدم الحبال، ولكن أقبل وحدك فلن يستطيع رفيقاك الاحتمال.

تعاون الجميع على ربط أحد طرفي الحبل حول رقبة الأدهم، والطرف الآخر ربطوه في قوة حول جسد "خالد" نفسه، بحيث يقوم

"مـراد" و"نجيـب" بعـدها بالإمسـاك بالحبـل وإنـزال "خالـد" بالتـدريج داخل الشلال.

همَّ خالد بالنزول، فاستوقفه "نجيب" وهو يقول في قلق:

- هل أنت متأكد من رغبتك في اقتحام الشلال؟

ابتسم "خالد" ابتسامة خفيفة وهو يقول:

- نعم، يا صديقي، دعنا نفعلها.

بدآ في إنزاله في بطء وحذر، وكعادتـه، أخذ عقلـه يعمل علـى تحليل مـا حولـه، ثم هجم علـى رأسـه سؤال عن حقيقـة الصـوت الـذي طلـب منـه النـزول، وإن كـان هـو نفسـه الصـوت القـديم، فكيـف تمكـن رفيقاه من سماعه؟ راودته فكرة أن يعود أدراجـه مـرة أخـرى، لكنـه لـم يفعل بـل استسلم تمامًـا إلـى رفيقيـه وهمـا ينزلانـه.. كانـت الحبـال علـى وشك الانتهاء حين سمع "خالد" الصوت مرة أخرى يقول:

- يجـب عليـك الآن أن تـأرجح جسـدك إلـى الخلـف ثـم تتركـه يخترق ماء الشلال، ولا تخف.

بدا الصوت هذه المرة قريب من "خالد"، فسأله الأخير:

- من أنت أيها الصوت؟

لم يجِبْه إلا الصمت.. أرهف سمعه ينتظره أن يسمع أي شـيء آخـر، لكـن هيهـات، لقـد سـاد الصـمت تمامًـا، قـرر أن يفعـل مـا طلبـه

الصوت منه، فأخذ يأرجح جسده إلى الأمام والخلف بقدر المستطاع ثم تركه يخترق ماء الشلال، وبدون مقدمات سحبه شيء ما إلى الداخل، ليجد نفسه وقد وقف على أرض صخرية سوداء، وأمامه ممر يمتد هبوطا إلى داخل الأرض نفسها، سمع الصوت مرة أخرى يطلب منه السير داخل الممر.

لم يسأل عن أي شيء آخر في هذه المرة، وفي همة فك طرف الحبل من حول جسده وسار في حذر شديد، بدا له أن الممر يزداد ظلمة كلما توغل بداخله، لكن همته لم تفتر، ثم بدأ يسمع أصوات غريبة لم يتبين فحواها في البداية؛ لقد كانت ضعيفة، ثم صارت أقوى وأوضح.

عقد حاجبيه في ضيق عندما تبينها؛ أصوات ضحكات هستيرية تبث الرعب والخوف في النفوس، ثم ظهر على يساره باب كبير موارب مصنوع من الصخر، فرح "خالد" عندما رآه، وقال في نفسه: أخيرًا سأغلق إحدى البوابات السبع.

بينما يتحرك في سرعة تجاهه، هبت ريح ساخنة، وعم الضبابُ الجوَّ من حوله فأصبح لا يرى شيئًا، ثم ازدادت سرعة الريح الساخن حتى أصبح لا يستطيع أن يحرك جسده أو يفتح عينيه، لكنه سمع الصوت مرة أخرى يحفزه ويمنيه بغلق البوابة إلى الأبد، وبالفعل، قاوم الريح في قوة حتى بدأ يحرك جسده، ورويدًا رويدًا بدأ

يحـرك جسـده مـرة أخـرى، وأخيـرا لمـس البوابـة، وهـم أن يغلقهـا مستخدمًا همته مع القليل الباقي من قوته، لكن فجأة خرجت من البوابة يد سوداء معروقة، قبضت على يده وبدأت تشده إلى الداخل في قوة، والصوت نفسه يضحك.

وسط ذلك الجو المخيف واليد التي تسحبه في قوة، خارت قواه، وبدأت الغيبوبة تهجم على عقله في ضراوة، استسلم إلى تلك اليد وهي تسحبه إلى الداخل في إصرار، وأغمض عينيه والبوابة على وشك أن تبتلعه، وفجأة توقف كل شيء؛ ويد ما تقبض على يده الأخرى وتشده في عكس الاتجاه.

فـي تلـك اللحظـة فـتح عينيـه، وفـي صـعوبة التفـت إلـى الخلـف، فـرأى شـيخ النـور ممسـكًا بيـده يجذبـه إليـه فـي قـوة عجيبـة، ثـم اسـتخدم الشـيخ العصـا فخـرج منهـا نـور ضـرب اليـد السـوداء فـي قـوة، وأجبـرت صـاحبها علـى تـرك يـد "خالـد"، وأغلـق الشـيخ البوابـة فـي قـوة، ثـم جـر "خالـد" إلـى خـارج الممـر حيـث كـان فـي انتظارهمـا الجـواد الأبـيض المجـنح، ومـا أن ركبـا علـى ظهـره حتـى ضـرب شـلال المـاء فـي قـوة واخترقـه ثـم طـار إلـى أعلـى مبتعدًا عن النهر والشلال.

ازدادت سرعة الجواد ومع ازديادها اختفت التفاصيل تمامًا، ثم أخذ في الهبوط بسرعة عالية إلى أن هبط أمام الكوخ، نزل الشيخ من

على ظهر الجواد، ثم ساعد "خالد" على النزول، وهو على وشك أن يغشى عليه، أسرع به الشيخ يجره خلفه ليدخله إلى الكوخ، وما أن دخلا حتى سقط "خالد" أرضًا.

كان "خالد" يستعيد القليل من وعيه وعلى فترات ثم يعود مغشيا عليه مرة أخرى، إلى أن استجمع قوته وفتح عينيه ليجد نفسه ممددًا على ما يشبه الطاولة، والشيخ يشق صدره ثم دخل في غيبوبة مرة أخرى، ثم استعاد وعيه فجأة.

كان ممددًا على الأرض والشيخ يجلس بجواره وهو يضع يدًا على صدره والأخرى على رأسه، ومن حوله يجلس السبعة القصار ممتلئي الجسد، وبعقله الذي مازال مشوشًا استطاع أن يميز بعضا من كلمات الشيخ وهو يقول لهم:

- إن كتاب الفرقان فيه الرحمة والنور، ويحتوي على ذاتية إغلاق جميع أبواب الشرور، فما يحتويه ذلك الكتاب قد أعاد للإنسان صياغة سيادته وخلافته على الأرض، بل أفهمه الغرض من وجوده، وأخبره عن الإله، كما حدثه عن الغيب، هو كتاب احتوى الروحانيات لكنه خرج بها من منطقة المعاني الضبابية إلى حيز التطبيق والعمل. لقد فرق هذا الكتاب بين أوهام الأهواء والرؤى الشخصية المحدودة وبين الحقائق الكاملة والمطلقة، فأعطى منهج العمل القائم على سلامة المعتقد.

في هذه اللحظة، أفاق تماما، فتوقف الشيخ عن الكلام، ونظر إليه وهو يبتسم ابتسامة صافية، جعلت "خالد" يبتسم له هو الآخر ابتسامة تحمل معاني الامتنان، وتعجب السبعة؛ فقد كانت ابتسامة "خالد" من الصفاء بحيث قاربت ابتسامة الشيخ نفسه. اعتدل جالسا على الأرض وهو يسأل الشيخ في حيرة:

- هل كنت أتوهم الأمر أم أنك قد شققت صدري بالفعل؟!

أجابه الشيخ بصوته الهادئ العميق:

- نعم شققت صدرك وغسلت قلبك.

لم يدرِ ماذا يقول إلا أنه وجد لسانه يسأل عن الكتاب الذي فيه الرحمة والنور، فأخبره الشيخ بأنه الكتاب الثالث. هم بسؤاله سؤالا آخر، لكن الشيخ قاطعه وهو يقول في عتاب:

- لماذا ذهبت إلى البوابات؟

أضاف الشيخ في سرعة قبل أن يجيب "خالد"، وبصوت حمل معه القلق:

- لقد كنا على وشك أن نفقدك هناك للأبد، ولو أني تأخرت ثانية واحدة لما استطعت أن أخرجك.

- أردت أن أغلق البوابات وأحرر الناس من الخوف.

نظر إليه الشيخ نظرة طويلة ثم وضع كلتا يديه على رأسه، فشعر "خالد" بوعيه يغادر جسده في سرعة جنونية قبل أن تهدأ الأمور فجأة، ثم وجد نفسه يقف مع الشيخ على الأرض، التي تبدو مختلفة، والشيخ يقول:

- هكذا كانت الحياة على الأرض قبل خلق الإنسان، عندما كان الجان هم من يعمرونها، لكن الكثير منهم وبسبب طبيعتهم، التي يتحكم الهوى فيها كما علمت، وتعدد أشكال أهواء نفوسهم، وحرص كل زمرة منهم أن يكونوا الملوك المستحقين للخلافة كما استوعبتها عقولهم حينئذ، ذلك لأن مفهومهم للخلافة هي أن تضع فرقة منهم يدها على المُلك دون غيرها كما تخبرهم أهواؤهم، تقاتلوا وتناحروا، وفي الحرب تظهر حقيقة النفوس جلية، لم يقاوم أي منهم حقيقة نفسه وهواه اللذين يتحكمان فيه، فعصوا الخالق وأفسدوا في الأرض. ومع حرص الكثيرين منهم على النصر الذي استحوذ علي عقولهم حدث لهم أمر عجيب، لقد ذبلت أجسامهم ومرضت أرواحهم، ثم تحولوا إلى كيانات مظلمة، وبحسب ما كان يتحكم فيهم من الهوى تشكلت تلك الكيانات. هذا كيان الظلمة من الكبر، وهذا من الشرك والكفر، وهذا من الكره، وهذا من شهوة الطمع، وهذا من شهوة القتل، وهذا من الكذب والمكر، وهذا من حب الفساد والإفساد، فأرسل الإله الخالق ملائكته التي حاربت هذه الكيانات المظلمة وحبست كل فرقة منهم خلف بوابتها، وما بقي من الجن انحصر ملكهم في الخلاء وما إلى ذلك.

كان الشيخ يشرح الأمر لـ"خالد" ومن حولهما تبدو المَشاهد حية تصور كل ما يقال، وكأنهما أصبحا جزءا من الأحداث نفسها.

رجع وعي "خالد" يسكن جسده مرة أخرى، وفتح عينيه ليجد نفسه في الكوخ مع الشيخ، وقد ذهب السبعة إلى حال سبيلهم، كان وجهه شاحبا من هول ما رأى، لكن ذلك لم يمنعه من سعيه الدؤوب لإيجاد الأجوبة التي تلح على عقله، فسأل:

- لكن ما الذي يجعل البوابات تفتح هكذا مرة أخرى؟

قال الشيخ في أسى:

- بعد أن حاربت الملائكة هذا الصنف من الجان قاموا بحبسهم في الأرضين السبع، وتركوا هؤلاء الذين بقوا على أشكالهم ولم يتحولوا إلى كيانات مظلمة، تركوهم يعيشون داخل سطح الأرض حيث كونوا ممالكهم، لكن الشيطان لم يحتمل ما حدث بعدها، فبعد زوال حكم الجان كان الشيطان يوقن من أنه سيصبح الخليفة. أصابته الصدمة عندما أوكل الإله إلى الإنسان بهذه المهمة، فكره الإنسانَ وصمم أن يجعله يقع في الخطيئة ليكرر خطايا الجان نفسها؛ ومن ثم يستحق المصير نفسه؛ فعمد إلى أن يذكي نار الغيرة والكره بين بني الإنسان حتى قتل الأخ أخاه، وهنا لاحظ الشيطان أن البوابة التي تحبس الكيانات المظلمة بشهوة الغيرة قد انفتحت قليلًا فعمد إلى جعل البشر يكررون معاصي الجان نفسها، فعلمهم السحر ليشركوا ويكفروا

وزرع الطمع والجشع والحقد والغل في النفوس ليفتح البوابات بعمل الإنسان نفسه.

أدرك الشيخ من الحيرة البادية على وجه "خالد" ومن شدة انعقاد حاجبيه أن كلامه يحتاج إلى الشرح فأكمل كلامه ولكن ببطء:

- فمثلا حين يستحوذ الطمع على نفس إنسانية، تتمنى تلك النفس الحصول على المزيد والمزيد بأي طريقة كانت، فيفتح ذلك من باب الطمع جزءًا، وحين يحسد الحاسد يفتح جزءًا وهكذا.

نظر "خالد" إلى وجه الشيخ عندما صمت الأخير فجأة، ليجد أن الابتسامة الصافية التي تزينه على الدوام قد اختفت ربما لأول مرة، والشيخ يكمل في مرارة:

- النفس الإنسانية في هذه الحال لا تفتح فقط جزءًا من البوابة، ولكنها ومن شدة حرصها تخلق مجالًا يمتد إلى البوابة نفسها، فتستدعي جزءًا مظلمًا منها يكون هذا المجال له سكنًا وأمنًا.. نفس الإنسان هي من تستدعيه وتعطيه المجال ليكون الأذى، فيؤذي بحسب صفته من حسد وطمع إلى آخره.

ومع ما سمعه ووعاه من كلام الشيخ، قال في حزم:

- لا بدَّ أن نغلق هذه البوابات إلى الأبد، أيها الشيخ.

أومأ له الشيخ برأسه دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كان الشيخ يتطلع في صمت إلى "خالد" الذي بدا عليه الشرود وهو ينظر إلى الأرض، ثم رفع الأخير نظره وهو يقول:

- حدثني أكثر عن كتاب الفرقان الذي يحتوي على الرحمة والنور.

نظر إليه الشيخ بفخر، وقد عادت ابتسامته الصافية تزين وجهه وهو يقول:

- هو كتاب يحوي بداخله الشفاء من كل داء، ليس فقط شفاء البدن، لكن شفاء العقل والنفس والروح، والأهم أنه يحوي شفاء القلب، لأنه لا يخاطب العقل فقط، ولا النفس أو الروح فقط، بل يخاطبهم جميعًا وينفذ إليهم. يحوي بداخله الأحكام ويحوي الحكمة من ورائها، يحوي النور ويحوي الهدى.

صمت الشيخ لحظات ثم عاد يقول:

- كما أنه يدل على الطريق المستقيم، ويؤمن للإنسان حريته من السيطرة عليها؛ بأن يدله إلى عبادة الإله الخالق وحده، كما أنه يحميه من الضر والفساد.

*****

طار الجواد بـ"خالد" عائدًا إلى صديقيه عند الشلال، و"خالد" كعادته يفكر في كل ما رآه وسمعه، ثم توصل إلى أن الحل يكمن في

ما يحتويه كتاب النور والرحمة من حكم وأحكام ونور وهدى، ولكن كيف لـه أن يحصل عليه؟ وأين يجده؟.. قبل أن يطلب من الجواد أن يذهب به إليه كما فعل من قبل، سمع فجأة صوت أشبه بصوت جده وهو يخاطبه من داخل عقله ويقول:

- فطرتك تحتويه وقلبك يفقهه، عقلك يعيه وروحك تراه، اجعل كلامك يعبر عنه وعملك يسير بك في طريقه المستقيم.

فرح كعادته حين يسمع الصوت يدوي داخل عقله، لكن ما قاله الصوت كان من الأهمية حتى أنه جذب كيانه كله إليه في محاولة لفهم معانيه.

اقترب الجواد من الشلال، كان أول من أحس به هو جواده الأدهم، صهل في قوة وأخذ يرفع قائمتيه الأماميتين ويضرب بهما الهواء، كأنما يغار أن يجد صاحبه وقد اعتلى صهوة جواد غيره، أو ربما يتمنى لو بمقدوره الطيران هو الآخر. انتبه "نجيب" و"مراد" إلى ما يفعله الأدهم، فقاما من جلستهما على الأرض والدموع ما زالت تغرق وجهيهما؛ حزنًا على ما حدث، فعندما سحبا الحبل إلى أعلى، لم يجدا لصديقهما أثرا، فظنا أنه مات غرقًا هناك.

لم يجدا شيئًا في البداية، ثم صرخ "نجيب" فجأة وهو يقفز فرحًا وينظر إلى الأعلى، حيث ظهر "خالد" وهو يطير بجواده الأبيض ويقترب منهما، لم تكد قدماه تلمسان الأرض حتى جرى إليه

صديقاه في لهفة، واحتضناه في سعادة، وبينما كانا يمازحان "خالد" طار الجواد الأبيض بعيدًا واختفى.

* * * *

(٣)

الفطرة تحتويه والقلب يفقهه ... البصيرة تراه و العقل يعيه

غادر "خالد" وصديقاه منطقة الشلال، ثم ذهب كل منهم إلى خيمته، جلس "خالد" على الأريكة في خارج الخيمة، وهو يدفن رأسه بين يديه، شارد الذهن يفكر بعمق فيما مرَّ عليه، ثم خرجت أمه، ووقفت أمامه تنظر إليه في شفقة قبل أن تجلس بجواره وهو تقول بصوتها الحنون:

- هوّن على نفسك، يا بني، فأنت تكاد تقتلها.

نظر "خالد" إليها نظرة طويلة خاوية ثم فتح فمه وهو يقول في أسى:

- إن الخطر عظيم، يا أمي، وأخاف على الناس من الضلال وعدم الإيمان.

- أيُّ خطر يا بني؟ هوّن على نفسك، إن الحياة في النهاية تسير.

ثم قامت، لتدخل الخيمة، لكنها وقبل أن تخطو إلى داخلها توقفت والتفتت إليه وهي تقول:

- لقد أرسل لك الزعيمان مندوبين يستعجلانك في الرد عليهما.

- وماذا كان ردك عليهما؟

- أخبرتهما أنك ستحكم بينهما غدا.

ثـم ابتسـمت ودخلـت الخيمـة، فمـدد جسـده علـى الأريكـة، وهـو ينظـر إلـى السـماء، ثـم سـمع الصـوت فـي عقلـه قويـا وهـو يقول:

- لقد اختلفت طريقة الحرب الآن عما كان واختلف أسلوب الشيطان، عندما فشلت خطتة الرئيسية في الانتقام من الإنسان عن طريق إعادة هيمنة الجان على الأرض واستعباد الإنسان فيها، ولم تأتِ بالثمار المرجوة منها، فكر في خطته الأخرى الجهنمية، استخدم الخبرات التي اكتسبها هو وجنوده من سحر شطر الأجساد والسيطرة عليها، وكذلك سحر تفتيت الأرواح وإظلامها، فعاد واستخدم علوم سحر الأجساد ليس فقط بغرض الاستعباد كما سبق ولكن بغرض الإمراض والإفساد بحيث يورث النفس الغم والعذاب، فتنسى تلك النفس الرحمة التي هي أصل الكتاب، فيكون حظ صاحبها اليأس والقنوت والبعد عن الإله.

ترك الصوت المجال لـ"خالد" كي يتدبر ما سمعه، ثم عاد يردف:

- كما وجه طلاسم تفتيت الروح وإظلامها؛ لبث المخاوف والأوهام في النفس، فيكون حظها القلق وعدم السكينة، ومن ثم اللجوء إلى أي أحد غير الإله طمعا في الحصول على الراحة المنشودة. وفي الحالتين، يكون نصيب العقل الضلالات والأوهام، وينشغل بالتفكير

فـي الأعـذار للتهـرب مـن طاعـة الإلـه، وفـي النهايـة، يكـون النصـر للشيطان على الإنسان ولكن بطرق أخرى.

صمت الصوت لحظات ثم عاد يقول:

- ومـع تغيـر أسـلوب الحـرب تغيـر الهـدف منهـا، أصـبح هـدف الشـيطان الآن أن يسـيطر علـى الإنسـان عـن طريـق السـيطرة علـى أفكاره والتي بدورها قد تؤدي إلى الضلال.

وبينما "خالد" يستمع إليه، وجد نفسه فجأة يخرج من هذا النور الضبابي بخطوات واسعة، ليجد نفسه يسير في نور أشد منـه وأصـفى، داخل بناء بيضاوي من الخشب السميك يسبح به فـي السماء، كمـا كـان هناك بعض التشققات في جدران البناء البيضاوي نفسـه، ومـن الخـارج يدور النـور حـول البنـاء، يحـاول أن يسـد هـذه التشـققات. رأى "خالـد" نفسـه يقـف فجـأة وينـوي الصـلاة، ثـم سـمع ذلـك الصـوت الهـادئ وهـو يقول له:

- اتجه إلى النور.

وجـد "خالـد" نفسـه يجيـب عليـه وهـو ينظـر إلـى أسـفل قدميـه، حيث يوجد خط مرسوم على الأرض أمامه:

- لكني أقف وقفة صحيحة بمحاذاة الخط.

- اتجه إلى النور.

أجابه "خالد" نفس الإجابة السابقة، ثم فجأة فُتح باب عن يمينه يشع من داخله نور عظيم غطى على جميع الأنوار السابقة، والصوت يقول:

- اتجه ناحية النور.

تحرك "خالد" ودخل من الباب في اتجاه النور.

فتح عينيه، ليجد نفسه ما زال على الأريكة خارج الخيمة، ولكن مع اختلاف بسيط، لقد أصبح يحيط به نور من السكينة والثقة والهدوء، والصوت يقول في عقله:

- حررهم جميعًا من ظلام الأفكار، حررهم من سيطرة الجن والشياطين، حرر المعتقد من التلبيس والضلال، حرر العمل من الرياء، حرر النية من التوجه لغير الإله، واجمع الرفقاء ليكتمل البناء.

صمت الصوت لحظات قبل أن يستكمل كلامه ويقول:

- استعد، يا "خالد"،...

وقبل أن يسأله لأيِّ شيء يستعد، وجد الجواد الطائر يهبط أمامه، ثم قال الصوت:

- امتطِ جوادك.

امتطى الجواد، الذي طار به في سرعة وقوة رأسيا، ثم زادت سرعته، ومع تلك السرعة العالية اختفت الأشياء جميعًا عن عيني

"خالد"، وحل بدلًا منها مجال من الألوان المختلفة، وبعد فترة من الصعود توقف الجواد أخيرًا، فوجد "خالد" نفسه يسبح فى فراغ من النور، لكن الجواد ما لبث أن طار مرة أخرى، نظر "خالد" أمامه فإذ الجواد يأخذه هذه المرة إلى ما يشبه الأرض الصخرية متعددة الألوان.

اقترب الجواد من الأرض الصخرية العجيبة في هدوء وحذر حتى هبط عليها ثم صهل في قوة، ترجل "خالد" عن ظهره ووقف ينظر حوله في تعجب، فقد كان الصخر أشكالًا وألوانًا وأحجامًا، والأرض نفسها تسبح فيما بدا له أنه ضباب أزرق.

كان "خالد" يشعر بالحيرة وهو يقف هناك وحيدًا إلّا من جواده، ثم ظهر ذلك شخص يأتي من بعيد على قدميه، ومع اقترابه بدأت تظهر ملامحه، فجرى ناحيته يحتضنه في شوق وهو يقول:

- جدي.

رفع رأسه وهو ينظر إلى جده في حيرة ويقول:

- لكن ماذا تفعل هنا؟ وما هذا المكان؟

كانت الجدية تبدو واضحة على وجه جده وهو يتلفت حوله، وكأنه يترقب حدوث شيء ما، وبينما "خالد" يسأله:

- ماذا هناك؟

لفت نظره حركة سريعة عن يمينه، ثم أخرى عن يساره ومن خلفه، ثم بدأ يسمع صوت حركات تأتي من كل مكان حوله. نظر فإذا الصخور نهضت واقفة على ما يشبه القدمين وهي تأخذ أشكالًا قريبة من شكل الإنسان، وإن اختلفت أحجامها وألوانها.

سمع "خالد" جده وهو يقول:

- مرحبًا بروحانيات الكواكب.

نظرت جميع الصخور إلى الجد وأحدهم يقول:

- إنه أنت مرة أخرى! وفي وقت اجتماعنا المنشود! لماذا اخترت هذا الوقت بالذات لتأتينا فيه؟ ومن هذا الذي معك؟

رد عليه الجد في حدة واضحة:

- إنك تسأل الكثير من الأسئلة، في حين أنك من يجب أن يُسأل ويساءل، أما من معي فهو حفيدي "خالد"، وقصدنا بالطبع المجيء إليكم في وقت اجتمعاكم ليسمع الجميع ما سنقول.

علا صوت الجد وإن غلب عليه الضيق وهو يقول:

- أنتم ما زلتم توجهون أفعالكم لضرر الإنسان، لم تفلح معكم لا التحذيرات السابقة ولا الحروب.

- ألا تفهم أنكم أنتم من تستخدمون العلوم والطلاسم لتوجيهنا لضر شخص ما أو نفعه .. أنتم من تقومون بالرصد، ونحن فقط نؤدي ما يطلب منا.

ردَّ عليه الجد في قوة وحزم:

- لكنكم لا ترفضون، ولا تتوقفون، بل تستمرون ربما لسنوات في ضركم للمرصود، ثم تطور الأمر ببعض المخلوقات - تحت سمعكم وبصركم وغطائكم - أن يطلبوا من البشر باسمكم أن يقوموا ببعض أفعال الكفر والضلال ومعصية الإله، بل يوهمونهم بأنكم أنتم من تطلبون ذلك منهم لجلب الخير والبركة.

رد عليه الكائن الصخري في هدوء:

- أنت تحملنا أيضا مسؤولية ما يقولون، نحن نفعل ما خلقنا له.

كان "خالد" يستمع إلى محاورة الجد مع الصخرة في تركيز شديد حين سمع الصوت بداخل عقله يقول:

- كتاب الرحمة والنور بداخلك هو فطرتك.. تكلم بما يمليه عليك قلبك ولا تخف.

فتح "خالد" فمه وهو يقول بصوت هادئ عميق ويبتسم تلك الابتسامة الصافية:

- نعم لقد أخطأتم.

نظر الجميع إليه، وهو يكمل في ثقة ويقول:

- عندما تظنون أنكم تملكون النفع والضر فأنتم مخطئون، إن النفع والضر بيد الإله وحده، وأنتم مجرد أسباب.

صمت قليلا وهو يجول ببصره بينهم ويتفحصهم، ثم قال بلهجة حازمة:

- أين أرواحكم المسبحة بحمد الإله طول الوقت؟

ظهر من بينهم كائن صخري أزرق يشع بضوء خافت جميل، تقدم إلى الأمام وهو يقول:

- ها أنا ذا.

ثم تبعه آخر وآخر، وحين تقدموا جميعًا إلى الأمام خاطبهم "خالد":

- المفروض أنكم المسؤولون والمهيمنون، فكيف خرجت الأمور عن سيطرتكم؟ لماذا تركتموهم يقومون بأعمالهم ويشتركون في إلحاق الضر بالإنسان؟ بل منهم من كان يأمر بالمعصية والضلال.

بدا لـ"خالد" أن ذلك الكائن الصخري الأزرق يتنهد وهو يقول:

- لقد سئمنا معاصي الإنسان، كبره وغروره، ضعفه وعبادته للجان والشيطان، سئمنا تقوله على الإله.

لاحظ "خالد" أن محدثه الصخري كان على وشك البكاء حين وصل بالكلام إلى هذه النقطة، ومع أنه أحس ناحيته بالشفقة إلا أنه قال في حزم واضح:

- لقد انتهى ذلك العهد تمامًا. بإذن الإله من الآن وصاعدًا تعود الهيمنة للروح المسبحة على باقي روحانيات الكواكب، وبإذن الإله يمنع تخويفهم للإنسان ويقطع سبيل طلباتهم وأوامرهم له بالقيام ببعض الأعمال تحت أي مسمى كان.

حاولت بعض الروحانيات الأخرى من الصخور الاعتراض، ولكن أبدا لم يستطِع أي أحد منهم قول أي شيء، حيث أكمل "خالد":

- ستؤدون أدواركم التي خلقتم لها، والتي ليس من ضمنها أذية الإنسان وإخضاعه أو تخويفه وإضلاله.

مع انتهائه تحررت روحانيات الكواكب، واستطاعت الكلام مرة أخرى، فقالوا جميعا في صوت واحد:

- هي الإشارة ولا شك، إنه أنت، لقد عاد الإنسان.

تكلمت الصخرة الأولى التي كانت تجادل الجد بصوت خافت مطأطئة رأسها:

- لكن ما زالت علوم الطلاسم منتشرة في الأرض، وما زال السحرة يستطيعون ربطنا بشخص ما، لجلب منفعة له أو مضرة.

ابتسم "خالد" لفطنتها، وأيضًا للتغيير البادي في كلامها، ثم علا صوته مرة أخرى وهو يقول في حزم:

- مما علمت من كتاب الرحمة والنور؛ من استعان من الإنس بالإله الخالق وحده فلن تستطيعوا أن تلحقوا به ضرًّا، ومن سأل الإله الخالق وحده مسألة فستكونون له عونًا، لقد قضي الأمر.

قال الجميع في صوت واحد:

- سمعنا وأطعنا.

نظر الجد إلى حفيده مبتسمًا وقد سره ما فعله، خصوصا وأنه قد أكمل ما بدأه هو نفسه، وقال:

- حان وقت رجوعك إلى الأرض.. صحبتك السلامة، يا بني.

وعاد "خالد" يمتطي ظهر جواده الذي طار به عائدًا تمامًا كما جاء.

هبط الجواد في المكان الذي توقعه "خالد" بالضبط، على حافة الشلال حيث نهاية النهر.. ترجل عن صهوة جواده وجلس على الأرض، ثم استلقى على ظهره وهو ينظر إلى السماء، يفكر في أمر روحانيات الكواكب وتذكر أمر البوابات، وكيف تؤثر الظلمة بداخلها على الإنسان.

قطع حبل أفكاره الجواد الذي صهل فجأة، التفت إليه ليرى ماذا هناك، رآه يرفع رأسه عاليا، فبدوره رفع بصره، ليجد كتابًا يشع منه النور يهبط عليه من السماء، اعتدل في جلسته، وهو يترقب في لهفة نزوله.

هبط الكتاب بين يديه، عندما أمسكه "خالد" شعر بكيانه كله يهتز وهو يقرأ العنوان المسطر عليه: كتاب الفرقان (فيه الرحمة والنور). فتح الكتاب وأخذ يقرأ ما جاء فيه، ودمعت عيناه واقشعر بدنه مما قرأ ومما فهم منه، فهم معنى أن يكون الإنسان حر الاختيار، معنى التكليف، التوحيد، فهم أن الإله يحكم ملكه بالرحمة وليس بالبطش والقوة، وفهم معنى الحمد، معنى الذكر والنور المصاحب له، فهم أن الإله قد خلق بداخل الإنسان نورًا، وأن كتاب الرحمة فيه نور يهدي النور بداخل الإنسان إلى نور الإله.

كان الكتاب يطير عاليًا ليعود إلى السماء عندما قام "خالد" من مكانه وركب جواده، وفي هذه المرة، كان عليه أن يوجه الجواد، ويحدد المهمة، فهو من رسم خريطة النجاة، صهل الجواد كأنه يسأله إلى أين.

- إلى الأسفل، يا صديقي، حيث توجد البوابات.

صـهل الجـواد مـرة أخـرى وهـو يطيـر إلـى أسـفل، وبسـرعتة العاليه، فمال "خالد" بجذعه إلى الخلف ليحافظ على توازنه، ثم توقف الجواد ودار حول نفسه واخترق ماء الشلال، وهبط على أرض الممر الذي يقود إلى البوابات.

وقف "خالد" وهو يقول في ثقة وبأعلى صوته:

- إن الإله خلق الإنسان حرًا في اختياره، كما أنه يحكم ملكه بالرحمة، ومن باب رحمة الإله فأنا أطالبكم بالإبقاء على حرية الإنسان كما أرادها الإله، وغلق تلك البوابات إلى الأبد.

انطلقت أصوات الضحكات الساخرة من حوله، وأحدهم يقول في استنكار وبصوت حاد له صدى ينفذ إلى النفس عميقا:

- من أنت حتى تقرر ما يجب علينا فعله؟ من أنت حتى تحكم علينا؟

- أنا الإنسان خليفة الإله و سيد الأكوان، أنا من خلقني الله حرًّا لأعرفه وأعبده بالاختيار.

سرت همهمة عالية، ثم فجأة صرخ صوت ما صرخة عالية تكاد تصم الآذان، ومع تلك الصرخة التي بدت وكأنها إذنٌ من نوع ما، هبت الريح الساخنة مرة أخرى وفي نيتها أن تقتلع "خالد" والجواد من مكانيهما إلى الأبد.

لكن "خالد" قال في ثقة وثبات:

- بسم الإله الواحد الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

أخذ يكررها بصوت عالٍ، فأحاطت هالة من النور بجسده والجواد، لتهدأ الريح ويسود الصمت المكان. تقدم داخل الممر الذي يقود إلى البوابات السبع، تحيط به هالته والجواد يصهل كأنه يدعو له بالتوفيق، ثم سمع صوت صراخ يأتي من الأسفل، مع صوت صرير أبواب وهي تقفل، ثم بدأت تنطلق أصوات تستغيث:

- الرحمة، أيها الإنسان.

رد "خالد" عليهم وهو يقول:

- أنتم أصوات المكر والخداع.

تحولت التوسلات إلى ضحكات تدوي في المكان مع صوت آخر يهدد:

- سوف أقتلك، أيها الإنسان.

صمت "خالد" تمامًا وأغلق عينيه وهو يقول في تضرع وتوسل:

- يـا إلهـي، يـا رحمـن، يـا مـن تسـتحق أن تحمـد وحـدك دون سواك، ارحم الإنسان واقطـع عنـه ضـر مـا يوجد خلـف تلك البوابـات، اقطع بينهم الروابط، وأغلق من دونهم المجالات.

ازداد نور الهالة حوله حتى أنه بدأ يشع منها وهو ينفذ إلـى كل مكـان، سـمع أصـوات صـرخات حقيقيـة؛ ممـا جعلـه يفـتح عينيـه والأصوات تقول:

- لاااااااااااااااااااااا.. لا يمكن.

وبدأ صـوت إقفـال الأبـواب يـرج المكـان، سبعة أبـواب أغلقت تباعًا، وحين وصل العد بـ"خالد" إلى رقم سبعة تهللت أسـاريره وهو يقول:

- الحمد والشكر لك، يا إلهي.

خـرج "خالـد" مـن الممـر فصـهل الجـواد، قفـز يعتلـي ظهـر ثـم التفت إلى الممر وقال:

- بحق كلمـات الله التامـات، يغلـق هذا الممـر كمـا أغلقت جميـع البوابات.

شـعر بـالأرض تهتـز تحـت قدميـه، فطـار الجـواد بـه عاليًـا فـي سرعة وخفة، وتحركت الأرض من أسفله في هذا الجزء وارتفعت،

لقد كان هذا الجزء من الأرض نفسه هو الباب الذي يغلق الممر، وقد كان، وانغلق الممر.

*****

في الصباح التالي، وجد صديقيه يقفان أمام خيمته، بادره نجيب وهو يقول في لهفة:

- ماذا فعلت يا "خالد"؟ الجميع في انتظارك عند العين وهم يطلبون حضورك على الفور.

قال "خالد" في حيرة:

- الجميع!

رد عليه "مراد" وهو يقول:

- نعم، كل سكان القرية ينتظرونك عند العين ومعهم الزعيمان.

وصل ورفيقاه إلى حيث العين، وبنظرة واحدة أيقن أنهما لم يكونا يبالغان على الإطلاق، فجميع سكان القرية بطائفتيها وزعيميها كانوا يقفون جميعًا حول العين، وربما لأول مرة يقفون دون أن يلقي أحدهم بالًا إلى من يقف بجواره، أهو من طائفته أم لا، تقدم ثلاثتهم من الزعيمين فقام زعيم طائفة "مراد" يقول بصوته الناعم:

- نريد حكمك الآن، يا "خالد".

وقام زعيم طائفة "نجيب" وهو يقول في هدوء:

- نعم، الآن.

وقف "خالد" وعلى وجهه يرى الصفاء، ثم بدأ يتكلم، بصوت كله ثقة:

- إن الجان يريدون أن يكونوا الأسياد، والشيطان يريد أن يكون السيد، والناس يتنازعون فيما بينهم على السيادة. الجميع يريد السيادة في الأرض من دون أن ينظر إلى معناها، إنها تكليف وليست تشريف، إنها تكليف من الإله الخالق وعهد معه، بأن المكلفين عليهم الطاعة والعبادة، لا يشركون به شيئًا، لا يعبدون إلا إياه، لا يستعينون بغيره فهو وحده الإله والرب. لقد خلق الإله الإنسان على أحسن صور الخلق، جعل فيه الروح والجسد والنفس، ليس فقط ليعيش بروحه في عالم الملكوت ويستمتع به هناك، وليس لكي يعيش فقط بالجسد يتلذذ في عالم المُلك والماديّات، بل ليحيا بهما معًا في سلام ونعيم. لو أرادنا الإله أرواحًا فقط لخلقنا ملائكة، ولو أرادنا أجسادًا فقط لخلقنا بهائم، لكنه بحكمته خلقنا على هذه الهيئة لنخرج مكنونات ذواتنا، وليعطينا الفرصة لنرى أثر أفعالنا، ماثلة أمام أبصارنا؛ لنتعرف عليه وندرك عظمته وقوته ورحمته، ونتعرف على أسمائه وصفاته وندعوه ونلجأ إليه، ونستعين به ونطلب إذنه، فكل شيء ملك يديه. لقد أخرجنا الإله من العدم إلى الوجود وحدد لنا طريقًا مستقيما لنسير فيه؛ لنصل إلى

الحيـاة الأبديـة الكاملـة. إن الحيـاة هـي الفرصـة ليظهـر مـن يسـتحق الاستمرار في الوجود ممن لا يستحق، وإلا العزل فيما يشبه الفناء.

صـمت "خالـد" لحظـات ليـرى تـأثير كلامـه عليهم، وحـين هم بالكلام مرة أخرى سمع صوت أحدهم يقول:

- أنت تريد الملك علينا ليس إلا!

نظر في اتجاه صاحب الصوت فوجده "سامر"؛ لذا رد قائلا:

- بحق الإله، لا أريد ملكًا عليكم، ولكني أريد أن نحيا جميعًا في مملكـة يكـون الإنسـان فيهـا السيد، لـيس بلونـه ولا حسبه ونسبه ولكن بقلبـه وتقـواه، مملكـة يكـون فيهـا الجميـع متسـاوون كأسـنان المشـط، والسيد فيها يكون بأفعاله وعبادته وطاعته للإله. يعود فيها الإنسان هو السيد كما أراده الإله أن يكون، ولكي يكـون السيد عليـه أن يتحـرر مـن عبـادة أهوائـه، ويتحـرر مـن عبـادة أفكـاره، ويتحـرر مـن عبـادة الجـن والشيطان. سوف يتحـرر حين لا يخشـى إلا الإلـه وحده، حين يـؤمن بأنه لا يملك له أي مخلوق أيا كان نفعًا ولا ضرًّا.

انطلق صوت "مراد" أعقبه "نجيب" وهما يطلبان من "سامر" الصـمت إلـى الأبـد وقـد انكشـف لهمـا مـدى كرهـه وحقده؛ ممـا شـجع الحضور على التأمين على كلام "خالد" وهم يهتفون:

- لا إله إلا الإله الخالق ولا رب سواه.

ثم علا أحد الأصوات وهو يسأل "خالد":

- ماذا علينا أن نفعل، أيها السيد؟

قال "خالد" في حماس وهو يوجه كلامه لهم جميعًا:

- ابنـوا الجسـور بـين ضـفتي النهـر، مـدّوا الـروابط بينهمـا ولتخـتلط الطائفتـان لتصـبحا طائفـة واحـدة تحيـا فـي سـلام، لقـد أنهيـت رصـد روحانيـات السـماء وطلاسـمهم، كمـا أغلقـت بوابـات الأرض.

كـان أهـل القريـة يتعـاونون فيمـا بيـنهم؛ ليمـدوا الـروابط بـين ضـفتي النهـر، كمـا أخـذوا فـي بنـاء الجسـور بينهمـا، توقـف الجميـع فجـأة وهـم ينظـرون إلـى أعلـى فـي فرحـة يشـاهدون ذلـك الجـواد الطـائر وهـو يهـبط مـن السـماء بجـوار "خالـد" الـذي اعتلـى ظهـره، وطـار بـه فـوق الـرؤوس، والجميـع يـدعون لـه بـالتوفيق والفلاح.

طار بالجواد وهو يقصد الشلال عند نهاية الأرض، لقد بدا له أنه يجب أن يفعل شيئا آخر هناك. وصل هناك بالفعل ثم هبط عن جواده وتقدم من حافة الأرض، كان المشهد عجيبا بحق، المياه تفور وهي تعلو من أسفل الشلال، أخذت تعلو وتعلو حتى كاد أن يحدث الفيضان مرة أخرى، وهاج الجواد وماج وهو يصهل في قوة، فقال "خالد" في صوت هادئ عميق:

- اهدئي أيتها المياه.

هدأت المياه، فصهل الجواد، وصاحبه يتمنى لو تردم تلك الأرض، ويردم معها مكان الشلال والبوابات من أسفله إلى الأبد، ثم ظهر الشيخ يحمل عصاه وظهر معه تلاميذه السبع، كان كل منهم يحمل في يديه حفنة من ثلج الأرض حيث يقع الكوخ، ثم رمى الجميع ما بأيديهم في مصب النهر، ورفع الشيخ عصاه وهو يقول بصوته الهاديء العميق:

- بإذن الإله، يختفي الشلال، وبقدرة الإله، يلتئم في الأرض الصدع.

وخرج من العصا نور أضاء المشرق والمغرب، وجهه الشيخ ناحية المصب، فاندفع النور يضرب الماء، وفجأة برزت من الماء كتل كبيرة من الثلج أخذ حجمها يكبر حتى غطى المكان تمامًا، ثم تصلد وتحول إلى ما يشبه الأرض، ثم امتد أثره إلى النهر نفسه.

كان "خالد" يقف مع الشيخ مسرورا فوق ما كان منذ لحظات أرضًا منخفضة، تقع أسفلها البوابات السبع، وقد صارت أرضًا صلبة في نفس مستوى باقي الأراضين، نظر الشيخ إليه وهو يقول:

- لقد أنهيت سحر الأجساد، كما أنهيت سحر الأرواح، ثم أنهيت سحر الأفكار، والآن عليك أن تعود إلى حياتك، لقد حان موعد عودتك.

شعر "خالد" بالحيرة من كلام الشيخ إلا أنه لم يسأله عن معناه.

امتطى جواده وطار به قاصدا العين لكنه فوجئ بأن كل شيء قد تغير هناك، لقد اختفى النهر وأصبحت العين بحيرة دائرية كبيرة تفيض بالماء، تصطف الخيام في دوائر من حولها، بحيث تتسع الدوائر كلما ابتعدت الخيام عن البحيرة، وما زاد المشهد جمالًا هو مجاري الماء التي كانت تخرج من البحيرة فيما يشبه أشعة الشمس وهي تغادر شمسها.

والماء يجري فيها ليسقي جميع الخيام، ويسقي الأراضي الخضراء، أحصاهم "خالد" أربعة عشر مجرى. كان المنظر يبدو بديعًا في عينيه حين حدث الأمر فجأة، تموجت صورة الأشياء من حوله ثم بدأت تتلاشى، وصوت يأتي من الفضاء وصاحبه يقول في فرحة:

- "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".

واختفى المشهد تمامًا، وبدأ "خالد" يفتح عينيه في بطء، والصوت نفسه يكمل في سعادة ويقول:

- "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون".

شعر بإعياء شديد يضرب جسده كله، وحين فتح عينيه هجم عليهما الضوء بقوة فعاد وأغلقهما في سرعة، ثم أحس بجلبة من

حولـه، ثم تسللت بعض تلك الكلمـات إلـى أذنـه وميـز بعضـها، منهـا صوت بكاء، أعقبه:

- الحمد لله، الحمد لله.

أعقبه صوت آخر يقول:

- أحضروا الطبيب المناوب بسرعة، لقد استيقظ "خالد".

فتح عينيـه فـي وهن مـرة أخـرى، فرأى رجـلا يرتـدي ملابـس بيضاء ينظر إليه مبتسما ويقول:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

لم يكن عقلـه بالصـفاء الكـافي ليستوعب مـا يحـدث حولـه، لكنـه حاول في إصرار أن يفعل، سمع الرجل في المعطف الأبيض يقول:

- لقد بدأ النبض والضغط ينتظمان.

فتح عينيـه مـرة أخـرى ليجـده ممسكا بـدفتر فـي يديـه يقرأ منـه بصوت تغلبه الدهشة:

- الاسـم "خالـد نـور الـدين"، السـن ثمانيـة عشـر عامًـا، تـاريخ دخول المستشفي.

توقف فجأة عن القراءة قبل أن يلتفت إلى شخصين يجلسان عن يمين "خالد" وهو يقول في دهشة:

- إنه في غيبوبة كاملة منذ سبعة أيام!

لم ينتظر منهما جوابا وهو يكمل القراءة ويقول:

- التشخيص: مممم مع صدمة قوية أدت إلى غيبوبة تامة.

كان الطبيب المناوب ما يزال يقرأ البيانات المدونة على كارت التعريف الخاص بحالة "خالد"، حين استعاد الأخير وعيه تمامًا وفتح عينيه عن آخرهما، ثم التفت في وهن ناحية الشخصين الذين يجلسان عن يمينه، ليجد أخاه الذي كان يقرأ سورة ياسين، يضحك في سعادة غير مصدق أن "خالد" قد أفاق وعاد، وبجواره تجلس أمه وهي تبتسم في حنان، وعيناها ممتلئتان بدموع الفرح وهي تردد:

- الحمد لله، الحمد لله.

بدأ يستوعب الأشياء من حوله، ابتسم وهو ينظر إلى أخيه وأمه نظرة امتنان، ثم تذكر شيئًا ما جعله يعقد حاجبيه في تفكير عميق، لقد تذكر أن جده توفي منذ ثلاثة أعوام، وفجأة تذكر كل شيء، تذكر ما حدث في تلك الليلة منذ اسبوع كامل.

لقد كان مستغرقا في النوم في غرفته، ثم فتح عينيه فجأة وقد تملكه خوف شديد، وسمع صوتا يشبه الهدير يكاد يفجر رأسه، وفي تلك اللحظة، هجم عليه كيان أسود كبير كاد معه قلبه أن يتوقف، ثم

شل ذلك الكيان حركته تمامًا، فأحس كأن رأسه وجسده قد شطرا إلى نصفين.

حاول عبثا التملص من هذه القوة المظلمة التي تسيطر عليه، ثم شعر بذلك الكيان يتسلل إلى نفسه، وغادره وعيه.

دخل بعدها في غيبوبة لسبعة أيام لم يفق منها إلا الآن، وبينما يدور ببصره في بطء محاولًا أن يستوعب الأمور من حوله، سمع صوتًا يأتي من داخل عقله يشبه صوت جده:

- انظر عبر باب الغرفة.

نظر "خالد" ناحية الباب المفتوح، ثم عبره ببصره إلى الخارج، فوجد شيخًا يرتدي جلبابا أبيض، شاربه ولحيته يغطيهما البياض تمامًا، وتزين وجهه ابتسامة صافية، وتحيط به هالة من النور، كما كان يقف بجوار الشيخ جواد أبيض جميل له جناحان كبيران ويخرج من منتصف جبهته قرن واحد.

* * * *

الخاتمة بقلم:

شوقي حنفي محمود

هي رحلة داخل نفس إنسانية، توضح كيف تتعافي فيها هذه النفس من الأسباب الكبرى للضلال، رحلة جهاد شاقة وعظيمة في البحث عن الطريق السليم والقويم. إنها رحلة عبرت بنا إلى أصول المسلمات التي نحيا بها وأحيانا لها، وفتحت عقولنا على ما تعنيه هذه المسلمات، وما تحمله من خلفيات كنا بعيدين كل البعد عن التفكير فيها.

كم منا سمع هذه الكلمات: سحر؛ رصد؛ روحانيات؛ كواكب؛ مسٌّ؛ لبس؛ حقد؛ حسد؛ كره؟ والأهم هو مَن منا يعرف أصل هذه الكلمات؟ مَن منا يعرف كيف تعمل وكيف تستخدم؟ مَن منا يعرف كيف تؤثر علينا وفي أي عضو ومن أية ناحية؟ ومَن منا يعرف كيفية التخلص والشفاء منها؟ مَن منا يعرف كيفية الوقاية منها وكيفية غلق بواباتها؟

إنها رحلة رشد وهداية توضح مراحل التطور المعرفي والعقلي للنفوس الإنسانية حتى تكون مؤهلة لمعرفة الله سبحانه. وما هي مصادر هذه المعرفة التاريخية الثابتة؟ هي رحلة تظهر لنا في أعمق المعاني كيفية مد جسور الربط بين المتباينات، بين الظاهر والباطن، بين الملك والملكوت، بين المعقول واللامعقول، بين المرئي واللا مرئي، بين المُشاهَد والغيبي، بين علاقة السماء بالأرض وكيف تحدث، كيف أن النفس الإنسانية هي الوحيدة المؤهلة في هذا الكون لتكون برزخًا بين العالمين ولهذا فإن الإنسان هو السيد.

إنهـا رحلـة الإنسـان السـيد فـي إثباتـه لبـاقي المخلوقـات أنـه المستحق بالسيادة والمُلك والخلافة لأنه تنفيذ لأمر الخالق وهدايته، هو الوحيد الذي فهم مراد الخالق من الخلق فهم معنى العبادة ومعنى الحمد ومعنى الذِّكر والنور المصاحب له.

إنهـا رحلـة تـتكلم عـن الـنفس والـروح والجـن والملائكـة والروحانيات ومحاولات تأثيرها على الإنسان الذي يعتقد الجميع أنهم يعرفون مداخل نفسه ومخارجها، وبالتالي يستسهلون السيطرة عليه.. هي رحلة تظهر فرضيات يتم التعامل بها في هذا العالم أقرب إلى المنطق الذي يرتضيه العقل، إنها رحلة قد صيغت في عبارات تتفجر فيها المعاني الجديدة كليا على أفهامنا وإدراكنا حتى تدفعنا دفعا إلى إعادة النظر في كل المسلمات التي نحيا بها.

إنهـا رحلـة البشـرية منـذ آدم إلـى أن تقـوم السـاعة فـي التطـور والرشد حتى سلمت بكل معاني التسليم لشريعة الإسلام والرسول الخاتم الكامل الأرزاق والكامل الأنوار والعظيم الأخلاق والذي وهبه الله القدرة الكاملة على التصحيح والتقويم فلم يدع بابًا للخير إلا فتحه ودلنا عليه، ولم يدع بابًا للشر إلا وأغلقه وحذرنا منه.

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليما كثيرا عدد ما وسع علم الله، هنيئًا لقراء هذه الرحلة من المتعة العقلية والخيال

الجـامح والعبـارات المتفجـرة والمعـاني الجديـدة وهنيئًـا لعـالم القصـة والرواية هذا المنحى الجديد.

تمت بحمد الله